قراءة فنية لشعر الهمذاني في مقاماته

إعداد

دكتور / محمد محمد موسى أبو جبل

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة أسيوط

المقدمة:

بديع الزمان الهمذاني- كما جاء في وفيات الأعيان لابن خلكان[1]- هو: "أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني، الحافظ المعروف ببديع الزمان، صاحب الرسائل الرائقة، والمقامات الفائقة، .... وله الرسائل البديعية والنظم المليح .... وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة.... ".

وكما جاء في – يتيمة الدهر للثعالبي[2]- هو: "أحمد بن الحسين بديع الزمان، ومعجزة همذان، .... ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه وغرر النظم ونكته ... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها[3]....، وحين بلغ أشده وأربى على أربعين سنة ناداه الله فلباه، ..... في سنة ثمان وتسعين وثلثمائة، .... على أنه ما مات من لم يمت ذكره، ولقد خلد من بقى على الأيام نظمه ونثره...".

---

(1) ج1 تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت ١٩٩٤م، ص١٢٧، ١٢٩.

(2) ج٤ شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة. ص٢٩٣- ٢٩٦.

(3) يعبر مارون عبود في كتابه (بديع الزمان الهمذاني) ط ١٩٦٣م، ص٢١- ٢٢ ، عن عدم رضاه عن مبالغة الثعالبي في ترجمته لأدباء اليتيمة ... ومنها ترجمته لبديع الزمان، .... ثم يقول: "أما الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن دوست جامع رسائل الهمذاني فكان كلامه موزونا تقبله النفس، قال في مقدمة الرسائل يصف البديع للذي سأله جمع آثاره: (وكان أبو الفضل طلق البديهة، سمح القريحة، شديد العارضة، زلال الكلام عذبه، فصيح اللسان عضبه، إن دعا الكتابة أجابته عفوا، وأعطته قيادها صفوا، أو القوافي أتته ملء الصدور على التوافي، ثم كانت له طرق في الفروع هو افترعها، وسنن في المعاني هو اخترعها....).

حيث يعقب مارون على هذا الوصف للبديع بقوله: "هذا كلام رجل يفصل الثوب على القد فيقف عنده القارئ متأملا، أما القول: "بديع الزمان، ومعجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد" فعبارات تحتوى على كل شيء وتكاد تكون لا شيء.

ويقدمه الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه- بديع الزمان الهمذاني[٤]- في مدخل دراسته له بأنه: "هو أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الصفار المكني بأبي الفضل المشهور ببديع الزمان المولود في همذان سنة ٣٥٨هـ (٩٦٨م) ومن ثم اكتسب نسبته إليها.

وقد كان تحمس بديع الزمان لعروبته، بادي الوضوح في شخصيته وفي أدبه... ومن ثم فقد أخطأ من عده من أدباء الفرس...

ألقى بديع الزمان بعصاه في هراة، واتخذها دار إقامة، وفيها حسنت حاله واقتنى ضياعا فاخرة، ولكن القدر لم يمهله في الحياة طويلا فقضى نحبه يوم الجمعة الحادي عشر من جمادي الأول سنة ٣٩٨هـ".

ومما جاء في ترجمته في- شرح مقامات الهمذاني[٥]- أنه : "هو الكاتب القدير والشاعر المبدع. ولا يخفى على أحد من المطلعين على الأدب العربي أن هذا البديع

([٤]) ط٤ سنة ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص١٧- ١٩. وما تراه في ترجمته وبيان منزلته ما جاء في مقدمة (شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني. تأليف محمد محيى الدين عبد الحميد. بيروت ط٢، ص٧-٩) وفي كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، تأليف آدم متز. نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة ص٣٢٧-٣٣١، وفي كتاب تاريخ الأدب العربي ج٢ لكارل بروكلمان، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، ط٥، دار المعارف ص١١٢- وفي كتاب (مجمع البحرين تأليف الشيخ ناصيف البازجي، بيروت ١٩٢٤م، هامش ص٣٦٩- ٣٧٠).

([٥]) ط دار التراث- بيروت ١٩٦٨م، ص٥- ٦ وفي ص٧ من هذه الترجمة أنه: "وقع شجار بينه وبين أبي بكر الخوارزمي مما حدا بالهمذاني إلى التصدي لهذا العملاق الذي لم يكن أحد غيره من الأدباء والشعراء ليجسر على مباراته، أو ليتجرئ على مجاراته، ولما تصدى الهمذاني لمساجلته، ووقعت بينهما المكاتبات والمباهتات والمناظرات، وحمى وطيس المعركة بينهما ورجحت كفة الهمذاني، فطبق الآفاق ذكره"...
وقد ذكرت هذه المشاجرة بنتيجتها المذكورة في أكثر من كتاب مثل: (يتيمة الدهر، ج٤، ص٢٣٨- ٢٣٩، ٢٩٤- ٢٩٥)، (تاريخ الأدب العربي لكارل ج٢، ص١١٢)، (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز ج١، ص٣٢٧)، (شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محيي الدين ص٧-٨)، (بديع الزمان الهمذاني للدكتور مصطفى الشكعة ص١٩).

معجزة همذان هو أول من ابتدع المقامات، في عصر عشى فيه سراج الأدب، وقد أصبح قدوة لكل من جاء من بعده وحاول أن يقلده .....

إن له من النثر والشعر ما قد أصبح مثلا يردده الأدباء والمشغوفون بالأدب العربي، ... وقد أنصفه الشيخ العلامة محمد عبده رحمه الله إذ كتب عنه يقول: "وما أجدره- أي ما أجدر بديع الزمان- بقول نفسه في وصف زهير:

(يذيب الشعر والشعر يذيبه	ويدعو القول والسحر يجيبه)

وأرى في هذه المقدمة أن أبين سبب اختياري لموضوع هذا البحث ؛ حيث دفعني إلى الكتابة فيه أني رأيت مما قرأته أنه مع شهرة بديع الزمان وكثرة الكتابة عنه وعن مقاماته مع شروحها ، فإن نظمه من الشعر الذي جاء فيها لم ينل حظا كافيا من الاهتمام والشرح والنقد بصورة مستقلة وشاملة وأن ما جاء في ذلك لم يخرج عن بعض أحكام جزئية متفرقة هنا أو هناك، بينما نالت مقاماته بشكل عام اهتماما من : "فطاحل الأدب واللغة العربية فحاولوا جاهدين تنقيحها من الشوائب التي طرأت عليها، فأعادوا إليها متانة الألفاظ واستقامة المبنى وسلامة المعنى"[٦].

وكان من مظاهر الاهتمام بها أنها طبعت في بولاق ١٢٩١؛ استانبول ١٢٩٨؛ القاهرة ١٣٠٤/ ١٩٢٣م؛ ونشرت مع تعليقات لمحمد الرافعي في القاهرة؛ ونشرت مع شرح للشيخ محمد عبده (المتوفى ١٩٠٥م) في بيروت ١٨٨٩م، ١٩٢٤م.

وطبعت المقامات على الحجر في طهران ١٢٩٦هـ، وفي الهند في السنة نفسها....[٧]، وكما يقول الدكتور عوض الغباري إن هذه الدراسات يصعب حصرها

---

(٦) شرح مقامات الهمذاني ط دار التراث بيروت ص٧.

(٧) تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان ج٢، ص١١٥.

لكثرتها وتعدد مناهجها وتنوع مفاهيمها شرقا وغربا[٨].

وكان مما استوقفني كذلك لاختيار هذا الموضوع ما قرأته عن منزلة هذا الرجل وما اشتملت عليه مقاماته وذلك في قول الدكتور شوقي ضيف[٩]: "وليس هناك كاتب في القرن الرابع نال من التمجيد والثناء ما ناله بديع الزمان، وحتى اسمه لا يعرفه الناس وإنما يعرفونه بلقبه الذي أطلقه عليه معاصروه وإنه ليفصح عن مدى إعجابهم به....

وقوله[١٠]: ويقول الحصري وقد ذكر اسمه (البديع): "هذا اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه، كلامه غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفا، والهوى يعشقه ظرفا".

وكذلك ما قرأته للدكتور زكي مبارك بعد استعراضه لمقامات الهمذاني من تحفيز إلى البحث فيها حيث قال[١١]: " وخلاصة القول أن مقامات بديع الزمان تحفة من تحف النثر الفني في القرن الرابع، وقد أردنا أن نطيل بها الطواف ليتعرف إليها القارئ فقد كان مفهوما عند كثير من الناس أنها ألاعيب لفظية ليس فيها من المعاني ما يستحق الدرس، ولكنا بعد مواجهتها مرة ومرة رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفة الروح ما يوجب الإعجاب، وكنا نحفظها في الحداثة، غير أنا لم نكن ندرك خطرها كما تمثلت لنا في هذه الأيام"، ثم يستطرد قائلا: "في تلك المقامات بعض العيوب، ولكن أي عمل فني سلم سلامة مطلقة من العيوب؟ ونؤكد للقارئ أننا لم نكشف من محاسنها إلا

---

(٨) كتابه: مقامات السيوطي، دراسة في فن المقامة المصرية، ط دار الثقافة العربية سنة ٢٠٠٢ ص٣، وقد قال ذلك بعد بيانه لما حظيت به المقامات العربية من اهتمام الدارسين، وأن النصيب الأكبر كان لمقامات الهمذاني والحريري.

(٩) كتابه: "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ط١١، دار المعارف ص٢٤٠.

(١٠) نفسه.

(١١) كتابه: النثر الفني في القرن الرابع ج١، ط٢، ١٩٥٧م، ص٢٢٦.

القليل، فليعد إليها يطالعها في فهم وروية، وليتأمل بصفة خاصة قرار الألفاظ والتراكيب وصوغ الأمثال".

كل ذلك بجانب ما قرأه للدكتور مصطفى الشكعة بعد الانتهاء من حديثه عنه في كتابه (بديع الزمان الهمذاني) حيث قال[١٢]:

".... بديع الزمان هو الأب الشرعي للقصة العربية، لما أبدعه من قصص قصيرة ممتعة، أطلق عليها مسمى (مقامات) وقد أعجب بها الإمام محمد عبده، فكان أول محقق لها وشارح لألفاظها، فضلا عن اهتمامه بالشعر الذي له فيه قصائد، جديرة بالاحتفال والإعجاب".

ولعلك تلاحظ معي هنا أنه مع اهتمام النقاد الكبير بمقامات الهمذاني لشهرته فيها دون الشعر فقد اعترف بعضهم بأنه كان له في الشعر قصائد جديرة بالاحتفال والإعجاب.

وكان مما رأيناه في ترجمته كذلك أنه كان شاعرا مبدعا.. وأنه كان يقترح عليه عمل قصيدة في معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة... وأن له من النثر والشعر ما قد أصبح مثلا يردده الأدباء... فكان ذلك كله مما دفعني إلى تناول شعره هذا الذي أرى أنه ظلم في عدم تعرض أحد إليه بما يلزم له.

ويبقى في هذه المقدمة ذكر ما سيضمه هذا البحث ويتمثل فيما يلي:

١. تمهيد يشتمل على حديث موجز عن أهمية مقامات الهمذاني بما تضمه من شعر، وسبب جمعه فيها بشكل عام بين النثر والشعر، وحجم هذا الشعر.

٢. نماذج لشعر الهمذاني في مقاماته يوضح في كل منها الغرض، ومدى الملاءمة للموقف، ومدى الاندماج بالنثر ، والسمات المميزة لهذا الشعر.

٣. خاتمة يذكر فيها ما يستخلص من قراءة شعر الهمذاني في مقاماته.

---

(١٢) بديع الزمان الهمذاني ط سنة ٢٠٠١م، صفحة الغلاف.

التمهيد:

تبدو أهمية مقامات الهمذاني بإيجاز في نقاط منها قول صاحب اليتيمة عنها[١٣]:

"ضمنها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام، وجد يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول".

ومنها قول مارون عبود[١٤]:

"أليس سواء لدى الفن، أأربعمائة مقامة أملى الهمذاني أم خمسين؟ فالمقامة المضيرية وبضع أخوات لها تغني عن ألف، وهي كافية لتحل صاحبها حيث حل".

ومنها قول الأستاذ الدكتور: محمد مصطفى هدارة عن هذه المقامات (في حديث عن رسالة باحث فيها)[١٥]:

"... في مقامات بديع الزمان صورة نابضة بالحياة لمجتمع القرن الرابع بفكره وفنه وقيمه وعاداته، ووجد في المقامات نفسها فنا أدبيا عاليا تتلاقى فيه مهارات الأديب ومعارفه وعلمه في كل فن، ويحتاج إلى قوة إبداعية تروع القارئ له بعمق مجراها وغزارة وحيها".

---

(١٣) ج٤ ص٢٩٤.

(١٤) كتابه: بديع الزمان، ص٤٣-٤٤.

(١٥) "المقامات اللزومية"، للسرقسطي، تحقيق الدكتور بدر أحمد ضيف، تقديم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة ١٩٨٢م، وفي هذا التقديم جاء حديث الدكتور هدارة عن رسالة هذا الباحث التي نال بها درجة الماجستير (صورة المجتمع العربي في القرن الرابع الهجري كما تبدو من مقامات بديع الزمان) ص٨-٩.

كما تبدو أهمية المقامات بشكل عام فيما أحدثته من أثر في اللغة والأدب تمثل بإيجاز فيما يلي[١٦]:

١. إثراء الأدب في الألفاظ والأساليب والأخيلة والمعاني.

٢. ظهور فن أدبي جديد هو القصة القصيرة.

٣. قدمت نماذج أدبية جميلة تحتذى.

٤. أحيت كثيرا من مفردات اللغة وأساليبها، ومن صور الأداء والتعبير فيها.

أما عن سبب جمع البديع في مقاماته بشكل عام بين النثر والشعر وعن حجم هذا الشعر فيها فإني أستحضر أولا رأيا للدكتور زكي مبارك في الفرق بين منزلة الشعر ومنزلة النثر ، أراه يغنيني هنا عن بعض البيان وذلك في قوله[١٧]:

" .... رأيي أن الموضوعات هي التي تحدد نوع الصياغة، فليس ينبغي أن يفترض أن الشعر صالح لكل موضوع، ولا أن النثر صالح لكل موضوع، فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر، والبليغ الموفق هو الذي يفهم سياسة الفطرة في مثل هذه الشئون، ففي بعض الأحوال يكون الإفصاح بالشعر نوعا من العيَ كما يكون أحيانا أسمى أنواع البيان".

ومما قاله في هذا المجال أيضا[١٨]:

"وفهم الظروف وما تقتضيه من شعر أو نثر هو أساس التوفيق عند من يفرض عليهم القول، فكم موطن يظهر فيه الشعر غريبا وكم موطن تظهر فيه الرسائل

---

(١٦) الوجديات. مقامات محمد فريد وجدي.. ط١ ١٩٨٢م، ص١٩ بتصرف.

(١٧) كتابه: "النثر الفني في القرن الرابع"، ج١، ص٢٥.

(١٨) نفسه ص٢٥.

والخطب وكأنها بعيدة عما يجب أن يقال، ولو تتبعنا آثار الكتاب الذين منحوا موهبة الشعر لرأيناها يجنحون إلى القريض في مواضع لا يغنى فيها النثر شيئا، فبديع الزمان يمضي في رسائله ومقاماته ناثرا، ثم ينتقل إلى الشعر فجأة حيث الشعر أقرب إلى ما يريد".

وأرى أن أقول هنا: إن الانتقال إلى الشعر ليس فجأة ، بل مقصود من الهمذاني لكون التعبير به في نظره يكون أقرب إلى ما يريد.

إلى أن قال الدكتور زكي[١٩]:

"قلنا إن الموضوعات هي التي تحدد نوع الصياغة فلنعد إلى ذلك بكلمة حاسمة فنقول: إذا كان موضوع القول متصلا بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب لأن لغته أقدر على التأثير والإمتاع، وإذا كان الموضوع متصلا بأعمال العقل والفهم والإدراك كان النثر أوجب، لأن لغته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين والإقناع".

وعن حجم هذا الشعر الذي جاء في مقامات الهمذاني أري أن أعقب هنا على بعض ما جاء فيه للدكتور مصطفة الشكعة وذلك في قوله[٢٠]:

"وأول ما نلاحظه في أسلوب المقامات الإكثار من الشعر بدرجة كبيرة إما مقتبسا وإما من إنشاء البديع نفسه، وليست هناك مقامة تخلو من أبيات تقل عن خمسة في المتوسط، وتزداد في البعض الآخر حتى تربو على العشرين".

حيث إنني وجدت من خلال استعراضي لمقامات بديع الزمان المطبوعة التي اطلعت عليها وعددها إحدى وخمسون مقامة أن هناك ست مقامات منها خلت تماما من

---

(١٩) نفسه ص٢٦.

(٢٠) كتابه: "بديع الزمان...." ص٣٤٨.

أي شعر وأن هناك مقامتين أخريين ما طبع منهما خلا من الأشعار، وذكر أنه حذف من نهاية كل منهما جزء وذلك لاشتمال ما حذف على بعض الفحش في القول[٢١].

أما بقية المقامات وعددها ثلاث وأربعون ، فقد اشتمل كل منها على شعر للهمذاني عدا المقامة الغيلانية التي خلت من شعره واشتملت على شعر ليس من نظمه.

النماذج الموضحة لشعر الهمذاني في مقاماته

جاءت أبرز الأغراض لشعر الهمذاني في إطار الأغراض العامة لمقاماته ، والتي عرف عنها أن أغلبها جاء في الكدية مصطنعا فيه أساليب الصنعة من سجع وتصوير، وطباق وجناس وغيرها ...

وقد كانت- كما قيل[٢٢]- لصرف تلاميذ الخوارزمي عنه بعد منافسة البديع له

([٢١]) والمقامات الستة هي: المقامة السجستانية ، والمضيرية ، والنهيدية ، والوصية ، والصيمرية ، والدينارية، والمقامتان الأخريان هما: المقامة الرصافية والمقامة الشيرازية. ويمكن الرجوع إلى هذه المقامات- على الترتيب المذكور- بجانب التعليق على سبب الحذف من المقامتين المذكورتين إلى مرجعين أولهما: (شرح مقامات بديع الزمان.... لمحمد محي الدين) في ص٢٥-٣٠، ١٢١-١٤٣، ٢٤٤-٢٥٢، ٣١٦- ٣٣٢، ٣٣٣-٣٧٣، ٣٧٤-٣٨٨، ٢١٥-٢٢٣، ٢٢٧-٢٣١. وثانيهما: (شرح مقامات الهمذاني، ط دار التراث- بيروت) في ص ٢١-٢٧، ١١٢-١٢٤، ١٨٣-١٨٨، ٢١٤-٢١٧، ٢١٨-٢٢٩، ٢٣٠-٢٣٤، ١٦٤-١٧٢، ١٧٥-١٧٧. وقد نص في هذا المرجع الأخير على أن الجزء الذي حذف من المقامة الرصافية اشتمل على بعض الشعر حيث ذكر منه بيت في ختامها هو:

وطيف سرى والليل في غير زيه ووافاه بدر التم فابيض مفرقه

كما نص في هذا المرجع أيضا على أن الجزء الذي حذف من المقامة الشيرازية اشتمل على بعض الشعر ؛ حيث قال كاتب المقامات في ختام هذه المقامة: "وأنشد أبياتا حفظتها وما نقلتها". وقد ذكر في المرجع المذكور أن سبب هذا الحذف من المقامتين أن الجزء المحذوف مخل بالآداب. وهنا أقول إنه مع القبول بهذا المبرر الأخلاقي يبقى الشعور بالأسف بسبب الحرمان من الحكم الفني على هذا الجزء المحذوف.

([٢٢]) ص١٧٢- ١٧٣ بديع الزمان للشكعة.

ومناظرته إياه، أو-كما قيل[٢٣]- إنها كانت معارضة من البديع لأحاديث ابن دريد تعليما للناشئة اللغة بالأساليب الأدبية المنمقة المصورة تصويرا بلاغيا[٢٤]، حيث عمد فيها إلى أقوال المكدين فصاغ بها صورا قصارا من حياة الأدباء السيارين.... تدور فيها المحاورة والمساجلة بين شخصين ..... في معان تضحك الحزين وتحرك الرصين[٢٥].

وسيكون الكلام عن أبرز الأغراض الشعرية هنا مقصورا على الشعر الذي نظمه الهمذاني في مقاماته دون ما نسب فيها لغيره.

ولئن غلبت الكدية على المقامات بصفة عامة إلا أنها حوت أغراضا أخرى كالمديح والوصف والنقد والأدب والألغاز والوعظ والحجاج في المذاهب وأحوال الزمان والفكاهة[٢٦].

ومع استعراض شعر الهمذاني في مقاماته نجد أن المديح أكثر أغراضه وأبرزها، ولعل مرد ذلك- كما يقول الدكتور مصطفى الشكعة[٢٧]- أن بديع الزمان رجل جواب آفاق يتكسب بأدبه وفنه، ويرد ندوات عظماء عصره، وهو رجل بالغ الحساسية، حافظ للجميل، من أكرم وفادته وأفاء عليه الظلال حفظ له جميله ورعى له عهده وشكر له رفده بما وهبه الله من بسطة في القول وروعة في البيان.

فهذا خلف بن أحمد على ضيق رقعة ملكه في سجستان كان معطاء يحب العلم

---

(٢٣) ص٢٤٨-٢٥٣ الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف.

(٢٤) ص٧-٨ مقامات السيوطي لعوض الغباري.

(٢٥) ص١١٢-١١٣ تاريخ الأدب العربي ج٢ لكارل بروكلمان.

(٢٦) ص ٣١٥ بديع الزمان للشكعة.

(٢٧) نفسه ص١٨٧.

والعلماء[٢٨]- وقد خلف على الهمذاني وأغناه- فجاءت في مدحه ست مقامات للبديع هي الناجمية والخلفية والنيسابورية والملوكية والسارية والتميمية.

وفي المقامة الناجمية[٢٩] كان احتيال بديع الزمان- كما يقول الدكتور مصطفى الشكعة[٣٠]- احتيالا موفقا لكي يمدح خلف بن أحمد، إذ ترى عيسى بن هشام وقد جلس بين جمع من الأصدقاء يتسامرون يفاجأ هو والقوم بالباب يقرع ويظهر لهم شيخ لطيف الكلام فصيح اللسان يشكو الفقر والجوع فيسأل عن اسمه فيجيب أنه معروف بالناجم، إلى أن يقول: قد جربني الدهر في زمني رخائه وبؤسه، فما بحت لبوسه إلا بلبوسه.

وإن كان صَرف الدهر قدمًا أضرَّبي	وحمّلني من ريبه ما يُحمَّل
فقد جاء بالإحسان حيث أحلني	محلّة صدق ليس عنها مُحوّل

فيسأله الجمع عن حاله فيقول: "أما الموطن فاليمن، وأما الوطر فالمطر، وأما السائق فالضر، والعيش المر"، فيهشون له ويطلبون منه الإقامة عندهم، فلديهم من الأمطار ما يزرع،..... فيجيب، ولكن أمطاركم ماء والماء لا يروي العطاش، فيسألونه عن أي الأمطار ترويه فيجيب، مطر خلفي ثم ينشد:

سجستان أيتها الراحلة	وبحرا يؤم المنى ساحلة
سنقصد أرجان إن زرتها	بواحدة مائة كاملة
وفضل الأمير على ابن العميد	كفضل قريش على باهلة

وتمر الأيام والقوم جلوس فإذا بالشيخ الناجم يهجم عليهم رافلا في نيل المنى

---

(٢٨) بديع الزمان .... لمارون ص١٣، ٣٦.

(٢٩) ص٢٨٥- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٩٩- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨ دار التراث.

(٣٠) كتابه: بديع الزمان ص٣٢٩.

وذيل الغنى، فيسألونه عما وراءه فيجيب: جمال موقرة، وبغال مثقلة، وحقائب مقفلة، ثم أنشأ يقول (خاتما لهذه المقامة):

مولاي أي رذيلة لم يـــأبها	خلـــف؟ وأي فضيلة لم يأتها؟
ما يسمع العافين إلا هـــاكها	لفظـــا وليس يجاب إلا هاتها
إن المكارم أسفرت عن أوجه	بيض، وكان الخال في وجناتها
بأبي شمائله التي تجلو العـــلا	ويدًا ترى البركات في حركاتها
من عدها حسنات دهر إننـــي	ممـــن يعـــد الدهر من حسناتها

ويتفق قولي هنا بعد هذا العرض مع قول الدكتور مصطفى الشكعة[٣١]: "إن هذه المقامة في نظرنا هي أحسن المقامات التي مدح بها بديع الزمان خلف بن أحمد، ففيها احتيال مقبول، وسعة وطول، وحركة وحوار، وحديث عن مذلة الفقر ومرارة الأقدار".

كما أري أنها تدل على حس فني ؛ حيث استطاع أن يوائم بين الحدث و بـــين الشعر الذي استشهد به ، وأري أيضا أن فيها حسن دمج واضح بين نثره وشعره ، مما يدل على مدى براعة الهمذاني ، وعلى حسن توفيقه في ذلك التنويع- الذي يلجأ إليه في مقاماته- إبعادا للملل ، وجذبا للمتلقي ، وتركيزا للانتباه ، وإمتاعا للذهن.

وقد اشتمل البيتان الأولان على المقابلة بين الإضرار والإحسان وعلى الجناس بين محلة ومحول بجانب التصوير الاستعاري للدهر فيهما.

واشتملت الأبيات الثلاثة بعدهما ، والتي جاءت مقفاة بحرفين على التصريع ، وعلى المبالغة في البيت الثاني (مائة كاملة) بجانب التصوير الاستعاري فـــي البيـــت الأول (يؤم المنى) والكناية في البيت الثاني (سنقصد أرجان) والتشبيه في البيت الثالث (وفضل الأمير ... كفضل قريش...).

---

(٣١) نفـــسه.

أما الأبيات الخمسة التي ختم بها المقامة ، فقد التزم فيها التقفية بحرفين أيضا ، واشتملت على التصريع ، وعلى المبالغة ، والمقابلة ، في البيت الأول الذي جاء بأسلوب إنشائي استفهامي بغرض النفي ، كما اشتملت على المبالغة والمقابلة في نصفى البيت الثاني ، مع القصر في كل منهما ، وعلى المبالغة والاستعارة المكنية في كل من الثالث والرابع والخامس.

وفي المقامة الثانية الخلفية[٣٢]، يتقابل عيسى بن هشام- وقد ولى البصرة- بشاب أديب فيصاحبه، ثم يغيب هذا الشاب عن نظره مدة فيعاتبه، فيحنق الشاب من هذا العتاب مستعظما ما حدث له من جفاء غلمانه ثم قال:

ظفرت يدا خلف بن أحمد؛ إنه	سهل الفناء مؤدب الخدام
أو ما رأيت الجود يجتاز الورى	ويحل من يده بدار مقام

قال عيسى بن هشام: ثم أعرض وتبعته استعطفه...

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة[٣٣]: بأن الاحتيال هنا من أجل المدح واضح، وأبيات المديح تبدو مقحمة على المقامة، بينما أرى أن التعريض عن طريق مدح خلف وخدامه إنما هو في صلب الموضوع وليس احتيالا.

لذا أري أن البديع كان موفقا في مدحه في هذا المقام ، كما كان موفقا كذلك في دمجه بين نثره وشعره ، وفي ملاءمة شعره للموقف الروائي مما يدل على حس الهمذاني الفني.

وقد اشتمل البيت الأول على كناية (ظفرات يدا ...) في نصفه الأول وأخرى (سهل الفناء) في نصفه الثاني بجانب التعريض، كما اشتمل البيت الثاني على استعارة

(٣٢) ص٢٩٨- شرح مقامات بديع الزمان.. لمحمد محي الدين، ص٢٠٥- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.
(٣٣) كتابه: بديع الزمان .... ص٣٢٨.

مكنية (يجتاز الورى) في نصفه الأول ، وعلى كناية عن نسبة الجود إلى خلف في نصفه الثاني.

وفي المقامة الثالثة النيسابورية[٣٤] يتقابل عيسى بن هشام مع رجل عذب الكلام، لطيف الأسلوب ، فيسأله عن اسمه ، فيجيب أنه رجل من الإسكندرية ، فيسأله عن وجهته ، فيجيب "الكعبة" كعبة المحتاج ، لا كعبة الحجاج، وقبلة الصلات لا قبلة الصلاة، فيتساءل عيسى وأين هذه المكارم؟ فينشد أبو الفتح (خاتما المقامة):

بحيث الدين والملك المؤيد	وخد المكرمات به مورد
بأرض تنبت الآمال فيها	لأن سحابها خلف بن أحمد

والتحايل بهذه القصة القصيرة للوصول إلى مدح خلف بهذين البيتين واضح التكلف ؛ لذا فإني أري أن بديع الزمان لم يكن كثير التوفيق في دمج البيتين بما قبلهما،كما لم يكن الموقف في حاجة إليهما ، وإن اشتمل البيتان على مدح جيد.

وقد ضم البيت الأول تصريعا ، كما ضم البيت الثاني حسن تعليل في نصفه الثاني، بجانب ما يظهر فيهما من استعارة مكنية (خد المكرمات)، و(تنبت الآمال) مع الكناية في (.... به مورد) والتشبيه المقلوب في (سحابها خلف...).

وفي المقامة الرابعة الملوكية[٣٥] تراها تبدأ بحديث عيسى بن هشام قائلا: كنت في منصرفي من اليمن، وتوجهي إلى نحو الوطن، أسرى ذات ليلة... فلما انتضى نصل الصباح... عنَ لي في البراح راكب شاكي السلاح... وحين تجالينا أجّلت القصة عن أبي الفتح الإسكندري، وسألني عن أكرم من لقيته من الملوك فذكرت ملوك ... وختمت الجملة بذكر سيف الدولة، فأنشأ يقول:

---

(٣٤) ص٣٠٥- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٢٠٨- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

(٣٥) ص٣٩٥- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محى الدين، ص٢٤١- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

يا ساريا بنجوم الليل يمدحها	ولو رأي الشمس لم يعرف لها خطرا
وواصفا للسواقي هبك لم تزر الـ	ـبحر المحيط ألم تعرف له خبرا
من أبصر الدُرَ لم يعدل به حجرا	ومن رأي خلفا لم يذكر البشرا
زره تزر ملكا يعطي بأربعة	لم يحوها أحد، وانظر إليه ترى
أيامه غررا، ووجهه قمرا	وعزمه قدرا، وسيبه مطرا
مازلت أمدح أقواما أظنهم	صفو الزمان، فكانوا عنده كدرا

قال عيسى بن هشام: فقلت: من هذا الملك الرحيم الكريم؟ فقال: كيف يكون، ما لم تبلغه الظنون؟ ... إلى أن قال (خاتما المقامة):

فليت شعري من هذى مآثره	ماذا الذي ببلوغ النجم ينتظر؟

ويمكن أن أقول هنا إن احتيال الهمذاني للوصول إلى مدح خلف بالأبيات المذكورة احتيال مقبول ؛ لأنه لم يكن احتيالا مباشرا تقدمه طالب عطاء كالمقامة السابقة، ومن ثم جاء اندماج الأبيات مع ما قبلها وما بعدها من النثر مقبولا، وكان الموقف الروائي في حاجة إلى هذه الأبيات، كما كان الهمذاني موفقا في هذا المدح الرائع الذي أتت به الأبيات ، وفي ختم المقامة بالبيت المذكور.

هذا وتبدو المبالغة جميلة في كل بيت من هذه الأبيات ، كما ترى فيها من ألوان الجمال كذلك مراعاة نظير وطباقا بين نجوم الليل والشمس ، وبين السواقي والبحر المحيط ، وبين الدر والحجر ، بجانب الترصيع وحسن التفسير في البيت الخامس وما ضمه من تشبيهات ، وكذا الطباق في البيت السادس بين صفو وكدر، كما ضم كل من البيت الثاني منها والأخير تنويعا بين الأسلوب الخبري والإنشائي الاستفهامي.

وفي المقامة الخامسة "السارية "[٣٦] بدأها الهمذاني بقول عيسى: "بينا نحن

([٣٦]) ص ٤٠٣- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص ٢٤٧- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

بسارية عند واليها، إذ دخل عليه فتى به رَدْعُ صُفار، فانتفض المجلس له قياما، وأجلس في صدره إعظاما .... وابتدأ فقال للوالي: ما فعلت في الحديث الأمسيَ ... إلى أن قال عيسى فقلت: حرسك الله ! ألست الإسكندري؟ فقال: وأدام حراستك، ما أحسن فراستك!

وبعد أن يرحب به عيسى يقول ثم ترافقنا ... وشرقت وغرب، فقلت على أثره:

يا ليت شعري عن أخ	ضاقت يداه وطال صيتهْ
قد بات بـــارحة لـــدى	فـــأين ليـــلتنا مبيتـــهْ
لا در در الفقـــر فهـــو	طـــريده وبـــه رزيتـــهْ
لأسلـــطن عليـــه مـــن	خلف بن أحمد من يميتهْ

حيث ترى نهاية المقامة بهذه الأبيات التي نسب فيها عيسى الفقر إلى الإسكندي مع شهرته ، كما نسب فيها الفقر إلى نفسه ليكون ذلك وسيلة للبيت الأخير الذي جعلـــه لمدح خلف بن أحمد بالكرم حيث أقسم فيه أن هذا الفقر سيزول بمنحه وعطاياه.

أما كلام المقامة النثري الذي سبق الأبيات فلم يكن إلا مقدمة لها ليست وثيقـــة الصلة، ولذا لا أري هنا دمجا بين نثر وشعر، كما أري أن شدة حرص الهمذاني علـــى أن يأتي ببيت المدح بعد هذه المقدمات المتكلفة قد أضر بفنية الموقف.

ونلحظ في البيت الأول من هذه الأبيات طباقا بين (ضاقت وطالت) وتنويعا بين أسلوب التمني والخبر ، كما نلحظ في الثاني طباقا بين (بارحة وليلتنا) وتنويعـــا بـــين أسلوب الخبر والاستفهام، وقد ضم البيت الأخير تجريدا، هذا بجانب ما جـــاءت عليـــه الأبيات من التزام التقفية بحرفين مسبوقين بحرف مـــد لزيـــادة الإحســـاس بالإيقـــاع الموسيقي.

وفي المقامة السادسة التميمية[٣٧] قال عيسى في حديثه: وليت بعض الولايات من بلاد الشام، ثم ذكر عيسى أسماء وليت أمورا أخرى فيها حتى صارت- كما قال- تحفة الفضلاء، ثم يقول: وورد فيمن ورد أبو الندى التميمي فلم تقف عليه العيون .... ودخل يوما إليَّ فقدرته حق قدره ... وقلت: كيف يرجى الأستاذ عمره؟ وكيف يرى أمره؟ فنظر ذات اليمين وذات اليسار فقال: بين الخسران والخسار، والذل والصغار، وقوم كروث الحمار... ، أما والله لقد وردت منهم على ما يشبههم من الناس، غير الرأس واللباس، وجعل يقول:

فدى لك يا سجستان البلاد	وللملك الكريم بك العبادُ
هب الأيام تسعدني وهبني	تبلغنيه راحلة وزادُ
فمن لي بالذي قد مات منه	وبالعمر الذي لا يستعادُ؟

وهنا يختم الهمذاني هذه المقامة بهذه الأبيات الجيدة في المدح ، بعد هذا الكلام النثري الذي لم يكن إلا وسيلة لها ، حتى يأتي فيها بما يشبه المقارنة بين ما تضمنته من مدح لخلف وقومه ، وما تضمنه النثر من ذم لهؤلاء القوم.

وبهذه الوسيلة بدت هذه الأبيات الثلاثة مكملة للموقف الروائي وليست مقحمة عليه، وقد اشتملت هذه الأبيات على تنويع بين الخبر والإنشاء في مقدمتها ونهايتها ، مع التصريع والكناية (الملك الكريم) في البيت الأول.

هذا وقد جاءت بعض مقامات الهمذاني بشعر له يحمل مع المدح غرضا آخر أو أكثر كالمقامة الجرجانية[٣٨] التي بدأها كعادته في مقاماته بجملة (حدثنا عيسى ابن

(٣٧) ص٤٠٧- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٢٤٩- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.
(٣٨) ص٥٦- شرح مقامات بديع الزمان- لمحمد محي الدين، ص٥٧- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

هشام قال[٣٩]) وقد اشتمل شعره فيها على الوصف والمدح.

وفيها يقول على لسان عيسى: بينا نحن بجرجان في مجمع لنا نتحدث وما فينا إلا منا إذ وقف علينا رجل.. فقال: يا قوم إني امرؤ من أهل الإسكندرية من الثغور الأموية .. كنا والله من أهل ثمٍّ ورمٍّ، نرعى لدى الصباح ونُثغى عند الرواح ... وأصبحت ... أعاني الفقر، وأماني القفر، فراش المدر، ووسادي الحجر.

بآمد مرة وبرأس عين	وأحيانا بميّا فارقينا
ليلة بالشام ثُمَّت بالأهـ	واز رحلي وليلة بالعراق

فما زالت النوى تطرح بي كل مطرح .. وأحلتني بلد همذان فقبلني أحياؤها ... ولكني ملت لأعظهم جفنةً، وأزهدهم جفوةً:

له نار تشب على يفاع	إذا النيران ألبست القناعا

فوطّأ لي مضجعا، ومهَّد لي مهجعا ... فما طيرتني إلا النِّعَم ... فطلعت من همذان طلوع الشارد ... على أني خلفت أم مثواي وزغلولا لي.

كأنه دملج من فضة نبهٌ	في ملعب من عذارى الحيّ مفصومُ

وقد هبت لي إليكم ريح الاحتياج ... فانظروا رحمكم الله لنقضٍ من الأنقاض مهزول هدته الحاجة، وكدته الفاقة:

أخا سفرٍ، جوابَ أرضٍ، تقاذفت	به فلواتٌ، فهو أشعث أغبر

جعل الله للخير عليكم دليلا....

---

(٣٩) حيث بدأت كل مقاماته بالجملة المذكورة عدا المقامة الغيلانية والبصرية اللتين بدأتا "بحدثني" والمقامة الأذربيجانية التي بدأت بـ "قال".

وفي هذه المقامة ينشد الهمذاني- كما ترى- على لسان أبي الفتح وسط النثر بيتين في الوصف ، ثم بيتين متفرقين في المدح ، ثم بيتا في الوصف، وأري أنه كان موفقا في مضمون شعره وفي ملاءمته لما قيل فيه، كما كان موفقا في دمج هذه الأبيات بما سبقها ، وما لحقها من نثر ، وذلك بما أحدثته من تنويع في الأسلوب ومن اشتراك مع النثر في سرد الأحداث.

وترى في البيتين الأول والثاني حسن تقسيم، وفي البيت الثالث مقابلة بين نصفيه ، وكناية عن الكرم في نصفه الأول، وفي البيت الرابع تشبيه (كأنه دملج..) وجاء البيت الخامس بعدة كنايات مع حسن تقسيم.

ومن المقامات التي ضمت شعرا للهمذاني في الوصف ، والمدح والاستجداء، والشكوى ، المقامة الجاحظية[٤٠]، وفيها يقول على لسان ابن هشام:

أثارتني ورفقة وليمة، فأجبت إليها ... فأفضى بنا السير إلى دار:

تُـركت والحـسن تأخذهُ	تنتقـي منـه وتنتخـبُ
فـانتبهت منـه طرائفـه	واستزادت بعض ما تهب

قد فرش بساطها، وبسطت أنماطها ... ثم عكفنا على خوان قد ملئت حياضه ... ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخوان.. يزحم باللقمة اللقمة ... وزلنا عن ذلك المكان، فقال الرجل: أين أنتم من الحديث الذي كنتم فيه؟ فأخذنا في وصف الجاحظ ولسنه ... فقال: يا قوم لكل عمل رجال .. ولكل زمان جاحظ .. فهل سمعتم له لفظة مصنوعة، أو كلمة غير مسموعة؟ فقلنا: لا، فقال: هل تحب أن تسمع من الكلام ما يخفف عن منكبيك وينم على ما في يديك؟ فقلت: إي والله، قال: فأطلق لي عن خنصرك، بما يعين على شكرك، فنلته ردائي، فقال:

(٤٠) ص٨٤- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٨٤- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

لعمر الذي ألقى علىّ ثيابه	لقد حشيت تلك الثياب به مجدا
فتى قمرته المكرمات رداءه	وما ضربت قدحًا ولا نصبت نَرْدا
أعد نظرا يا من حباني ثيابه	ولا تدع الأيام تهدمني هدًّا
وقل للألي إن أسفروا أسفروا ضُحًى	وإن طلعوا في غمة طلعوا سعدا
صلوا رحم العَليا، وبلوا لهاتها	فخير الندى ماسح وابله نقدا

قال عيسى بن هشام: فارتاحت الجماعة إليه، وانثالت الصلات عليه، وقلت لما تآنسنا: من أين مطلع هذا البدر؟ فقال:

إسكندرية داري	لو قر فيها قراري
لكن ليلى بنجد	وبالحجاز نهاري

وفي هذه المقامة- كما ترى- ينظم الهمذاني على لسان عيسى بيتين في الوصف ، ثم خمسة أبيات على لسان أبي الفتح في المدح والاستجداء ، ثم يختم مقامته ببيتين في الشكوى من أحداث الزمان ، على لسان أبي الفتح أيضا.

وأرى أن بيتي الوصف كانا موفقين من حيث المضمون والاندماج في سرد الأحداث بما سبقهما ولحقهما من نثر، وأن الأبيات الخمسة لم تصل إلى حد التوفيق المقبول من حيث المضمون والاندماج ، بخلاف بيتي الشكوى ، اللذين أرى أن الختام بهما كان موفقا من حيث المضمون والاندماج مع ما قبلهما في استكمال الموقف الروائي.

وقد اشتمل البيتان الأولان على استعارة مكنية بها ترشيح- فما وصفت به الدار...، كما اشتملت الأبيات الخمسة على كناية عن نسبة المجد...، في البيت الأول،وعلى مراعاة نظير واستعارة مكنية بها ترشيح- مع الكناية- في البيت الثاني، وفي البيت الثالث تنويع بالانتقال إلى الأسلوب الإنشائي مع الاستعارة في

(الأيام تهدمني)، وفي البيت الرابع طباق (ضحى، غمة) وفي البيت الخامس استعارة مكنية بها ترشيح (صلوا رحم العليا....) أما البيتان الأخيران فيظهر فيهما التصريع، والوزن القصير، وحسن التقسيم.

هذا وقد جاءت المقامة البخارية[٤١] أيضا بشعر للهمذاني في الوصف والمدح، والعتاب ، والاعتذار. حيث قال على لسان عيسى:

أحلني جامع بخاري يوم وقد انتظمت مع رفقة في سمط الثريا، وحين احتفل الجامع بأهله طلع إلينا ذو طِمْرين قد أرسل صوانا، واستتلى طفلا عريانا .... فوقف الرجل وقال: لا ينظر لهذا إلا من الله طفله .... يا أصحاب الجدود المغروزة والأردية المطروزة ... إنكم لن تأمنوا حادثا.. فبادروا الخير ما أمكن ... ثم قعد مرتفقا وقال للطفل: أنت وشأنك، فقال: ما عسى أن أقول وهذا الكلام لو لقى الشعر لحلقه، أو الصخر لفلقه ... فليشغل كل منكم بالجود يده، وليذكر غده، واقيابي ولده....

قال عيسى بن هشام: فما آنسني في وحدتي إلا خاتم ختمت به خنصره، فلما تناوله أنشأ يصف الخاتم على الإصبع، وجعل يقول:

وممنطق من نفسه	بقلادة الجوزاء حسنا
كمتيم لقى الحبيب	ب فضمه شغفا وحزنا
متألف من غير أسـ	ـرته على الأيام خدنا
علق سنى قدره	لكن من أهداه أسنى
أقسمت لو كان الورى	في المجد لفظا كنت معنى

(٤١) ص٩٥- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٩٣- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

قال عيسى بن هشام: فنلناه ما تاح لنا من الفور، فأعرض عنا حامدا لنا، فتبعته حتى سفرت الخلوة عن وجهه، فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الإسكندري، وإذا الطـــلا زغلوله، فقلت:

أبا الفتح شبت وشب الغلام	فأين السلام، وأين الكلام؟

فقال:

غريبا إذا جمعتنا الطريق	أليفا إذا نظمتنا الخيـــام

فعملت أنه يكره مخاطبتي، فتركته وانصرفت

حيث ترى في هذه المقامة أن الهمذاني ينشد خمسة أبيات في الوصف والمدح على لسان أبي الفتح ، ثم بيتا في معاتبة أبي الفتح على لسان عيسى ، ثـم بيتـا فـي الاعتذار لعيسى على لسان أبي الفتح.

وأرى هنا بعض التوفيق في مضمون شعر الهمذاني ومشاركته للنثر الذي سبقه ولحقه في استكمال المواقف الروائية.

وقد جاءت الأبيات الخمسة بوزن قصير ومشتملة على استعارة مكنية في البيت الأول (قلادة الجوزاء) وعلى تشبيه في البيت الثاني (كمتيم لقى....) وعلى تشبيهين في البيت الخامس الذي ضم كذلك طباقا (بين لفظ ومعنى) ، كما اشتمل البيت التالي لهـذه الأبيات على ترصيع وحسن تنويع بين الإنشاء والخبر وجناسين ناقصين بين (شـبت وشب) ، (السلام والكلام)، وجاء البيت الأخير مشتملا على حسن تقسيم بين شـطريه، وطباق (بين غريبا وأليفا) مع الاستعارة المكنية في (جمعتنا الطريق) وفـي (نظمتنـا الخيام).

كذلك تجد من أغراض شعر الهمذاني في مقاماته الوصف ، والمدح، مع الحوار والقص، والفخر ، والحكمة، وضرب المثل، وهو ما تلحظه في المقامة البشرية[٤٢] التي حدث فيها عيسى بقوله:

كان بشر بن عوانة العبديّ صعلوكا فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها، وقال: ما رأيت كاليوم، فقالت:

أعجب بشرا حورْ في عيني	وساعد أبيض كاللجين
ودونه مسرح طرف العين	خمصانة ترفل في حجلين
أحسن من يمشي على رجلين	لو ضم بشر بينها وبيني
أدام هجري وأطال بيني	ولو يقيس زينها بزيني
لأسفر الصبح لذي عينين	

قال بشر: ويحك من عنيت؟ فقالت: بنت عمك فاطمة، فقال: أهي من الحسن بحيث وصفت؟ قالت: وأزيد وأكثر، فأنشأ يقول:

ويحك يا ذات الثنايا البيض	ما خلتني منك بمستعيض
فالآن إذ لوحت بالتعريض	خلوت جوا فاصفري وبيضي
لاضُمّ جفناي على تغميض	ما لم أشل عرضي من الحضيض

فقالت:

كم خاطب في أمرها ألحا	وهي إليك ابنة عم لحا

(٤٢) ص٤٤٩- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٢٦١- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

ثم أرسل إلى عمه يخطب ابنته، ومنعه العم أمنيته، فآلى ألا يرعى على أحد منهم إن لم يزوجه ابنته، ثم كثرت مضراته فيهم[٤٣]... واجتمع رجال الحي إلى عمه، وقالوا: كفّ عنا مجنونك، فقال: لا تلبسوني عارا، وأمهلوني حتى أهلكه ببعض الحيل، فقالوا: أنت وذاك، ثم قال له عمه: إني آليت أن لا أزوج ابنتي هذه إلا ممن يسوق إليها ألف ناقة مهرا، ولا أرضاها إلا من نوق خزاعة، وغرض العم كان أن يسلك بشر الطريق بينه وبين خزاعة، فيفترسه الأسد، لأن العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق، وكان فيه أسد يسمى داذًا، وحية تدعى شجاعا ... ثم إن بشرا سلك ذلك الطريق، فما نصفه حتى لقى الأسد، وقمص مهره، فنزل وعقره، ثم اخترط سيفه إلى الأسد، واعترضه، وقطه، ثم كتب بدم الأسد على قميصه إلى ابنة عمه:

١- أفاطم لو شهدت ببطن خبت	وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
٢- إذا لرأيت ليثا زار ليثا	هزبرا أغلبا لاقى هزبرا
٣- تبهنس إذ تقاعس عنه مهري	محاذرة، فقلت: عقرت مُهرا
٤- أنل قدمي ظهر الأرض، إني	رأيت الأرض أثبت منك ظهرا
٥- وقلت له وقد أبدى نصالا	محددة ووجها مكفهرا
٦- يكفكف غيلة إحدى يديه	ويبسط للوثوب علىّ أخرى
٧- يدل بمخلب وبحد ناب	وباللحظات تحسبهن جمرا
٨- وفي يمناي ماضي الحد أبقى	بمضر به قراع الموت أثرا
٩- ألم يبلغك ما فعلت ظباه	بكاظمة غداة لقيت عمرا
١٠- وقلبي مثل قبلك ليس يخشى	مصاولة فكيف يخاف ذعرا ؟!
١١- وأنت تروم للأشبال قوتا	وأطلب لابنة الأعمام مهرا

(٤٣) يروى قبل هذه الفقرة (كما جاء في هامش المرجعين السابقين) "ثم دبت الأيام، ودرجت الليالي، وتصرمت الشهور، وتجرمت السنون، وبشر يفتك في من لقيه منهم، وكثرت مضراته فيهم- الخ".

١٢- ففيم تسوم مثلي أن يولى	ويجعل في يديك النفس قسرا ؟
١٣- نصحتك فالتمس ياليث غيري	طعاما؛ إن لحمي كان مرا
١٤- فلما ظن أن الغش نصحي	وخالفني كأني قلت هجرا
١٥- مشى ومشيت من أسدين راما	مراما كان إذ طلباه وعرا
١٦- هزرت له الحسام فخلت أني	سللت به لدى الظلماء فجرا
١٧- وجُدت له بجائشة أرته	بأن كَذَبته ما منته غدرا
١٨- وأطلقت المهند من يميني	فقد له من الأضلاع عشرا
١٩- فخر مجدلا بدم كأني	هدمت به بناء مشمخرا
٢٠- وقلت له: يعز عليَّ أنّي	قتلت مناسبي جلدا وفخرا ؟
٢١- ولكن رمت شيئا لم يرمه	سواك، فلم أطق يا ليث صبرا
٢٢- تحاول أن تعلمني فرارا !	لعمر أبيك قد حاولت نكرا !
٢٣- فلا تجزع؛ فقد لاقيت حرا	يحاذر أن يعاب، فمتّ حرّا
٢٤- فإن تك قد قتلت فليس عارا	فقد لاقيت ذا طرفين حرا

فلما بلغت الأبيات عمه ندم على ما منعه تزويجها وخشى أن تغتاله الحية، فقام في إثره، وبلغه وقد ملكته سورة الحية، فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية، فجعل يده في فم الحية وحكّم سيفه فيها، فقال:

بشر إلى المجد بعيد همُّه	لما رآه بالعراء عمه
قد ثكلته نفسه وأمه	جاشت به جائشة تهمه
قام إلى ابن للفلا يؤمه	فغاب فيه يده وكمه
ونفسه نفسي وسمي سمه	

فلما قتل الحية قال عمه: إني عرّضتك طمعا في أمر قد ثنى الله عناني عنه، فارجع لأزوجك ابنتي، فلما رجع جعل بشر يملأ فمه فخرا، حتى طلع أمرد كشق القمر على فرسه مدججا في سلاحه، فقال بشر: يا عم إني أسمع حس صيد، وخرج فإذا بغلام

على قيد، فقال: ثكلتك أمك يا بشر ! أن قتلت دودة وبهيمة تملأ ما ضغيك فخرا؟ أنت في أمان إن سلمت عمك، فقال بشر: من أنت لا أم لك ؟! قال: اليوم الأسود والموت الأحمر، فقال بشر: ثكلتك من سلحتك، فقال: يا بشر ومن سلحتك، وكر كل واحد منهما على صاحبه، فلم يتمكن بشر منه، وأمكن الغلام عشرون طعنة في كلية بشر، كلما مسه شبا السنان حماه عن بدنه إبقاء عليه ... ثم ألقى رمحه واستل سيفه فضرب بشرا عشرين ضربة بعرض السيف، ولم يتمكن بشر من واحدة، ثم قال: يا بشر سلم عمك واذهب في أمان، قال: نعم ولكن بشريطة أن تقول لي من أنت، فقال: أنا ابنك، فقال: يا سبحان الله ما قارنت عقيلة قط، فأني لي هذه المنحة؟ فقال: أنا ابن المرأة التي دلتك على ابنة عمك، فقال بشر:

تلك العصا من هذه العُصيّة	هل تلد الحية إلا الحيهْ !

وحلف لا ركب حِصانا، ولا تزوج حَصانا ثم زوج ابنة عمه لابنه.

وبداية أرى هنا أن بديع الزمان كان بارعا جدا في هذه القصة لدرجة أنه- كما يقول الدكتور مصطفى الشكعة[٤٤]- لروعة أحداثها واتساقها مع أخلاق الصعاليك الجاهليين وشجاعتهم وفصاحتهم أدخل في روع الكثيرين من الدارسين أن بطله بشر بن عوانة شخصية تاريخية حقيقة، والواقع غير ذلك، فلم يكن بشر بن عوانة إلا من ابتكار خيال بديع الزمان الخصيب.

كما أرى كذلك غرابة في إقدام زوجة بشر هذا على إخباره عن ابنة عمه وجمالها وحثه على خطبتها والزواج منها ولعلها كانت تريد الإيقاع به مع عمه بسبب أسرها والزواج بها (إثر إغارته على الركب الذي كانت فيه) وحتى ينشغل بابنة عمه وتعود هي إلى أهلها.

([٤٤]) كتابه: بديع الزمان ... ص٣٨٧.

وبالنظر في شعر الهمذاني في هذه المقامة تجد أولا أبياته الخمسة اللزومية التي أتى بها على لسان تلك المرأة الجميلة في الوصف والمدح في حوار بينها وبين ذلك الذي أسماه بشرا، وقد جعل بشرا يرد عليها بثلاثة أبيات لزومية أيضا في الغرضين المذكورين ، مع إظهاها ما عزم عليه نحوها ونحو ابنة عمه، فكان الرد بذلك البيت اللزومي الذي أتى به على لسان المرأة ، ثم أتى بأربعة وعشرين بيتا على لسان بشر، أرسلها لابنة عمه يحكي فيها قصة لقائه مع الأسد ويفخر فيها بتغلبه عليه ، ثم أضاف أربعة أبيات لزومية على لسان بشر أيضا في الوصف والفخر تصوير لقتاله للحية ، ثم ختم شعره في هذه المقامة بهذا البيت الذي جاء على لسان بشر في الحكمة والمثل.

وأرى أن كل الأبيات هنا قد جاءت في قمة القوة من حيث المضمون ومن حيث التعبير الموفق عن الأحداث الروائية في المقامة، مع الاندماج بما سبقها وما لحقها من نثر.

وبجانب هذا ترى أولا في الأبيات الخمسة الأولى اللزومية تشبيها في البيت الأول (وساعد أبيض كاللجين) وكناية في البيت الثاني (خمصانة ترفل في حجلين) ومبالغة في الثالث (أحسن من يمشى على رجلين) ومثلا عربيا في الخامس (أسفر الصبح لذي عينين).

وترى في الأبيات الثلاثة التالية كناية في الأول (ذات الثنايا البيض) واستعارة تمثيلية في الثاني (خلوت جوا فاصفري وبيضي[٤٥]) وكناية في الثالث (لاضم جفناي على تغميض) كما ترى جناسا بين (البيض وبيضي).

واشتمل البيت الذي جاء بعدها على كناية (كم خاطب في أمرها ألحا) وعلى جناس بين (ألحا، لحا).

---

(٤٥) هذه الجملة التي أصبحت مثلا مأخوذة من قول كليب وائل حين رأى قنبرة اتخذت عشا في حماه ...

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونقري ما شئت أن تنقري

(هامش ص٤٥٧ شرح مقامات بديع الزمان ... لمحمد محى الدين)

كما اشتملت الأبيات الأربعة والعشرون على استعارة تصريحية في البيت الثاني في كلمة (ليثا) وفي كلمة (هزيرا) وعلى استعارة مكنية في الرابع (أنل قدمي..) وأخرى تصريحية وكناية في الخامس (نصالا، وجها مكفهرا) وعلى طباق في السادس (يكفكف ويبسط) وعلى تشبيه في السابع (تحسبهن جمرا) ومراعاة نظير (مخلب، ناب) وعلى كناية في الثامن (في يمناي ماضي الحد...).

وفي البيت العاشر ترى تشبيها (قلبي مثل قلبك) وتنويعا بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي الاستفهامي ، كما ترى مثل هذا التنويع بين البيتين الحادي عشر والثاني عشر، وفي البييت الثالث عشر استعارة مكنية (نصحتك...) وكناية (لحمي كان مرا)، وفي الرابع عشر طباق (عش، نصح) وفي الخامس عشر استعارة تصريحية (أسدين) وجناس (راما، مراما) وفي السادس عشر تشبيه (فخلت أني ....) وطباق (ظلماء، فجر).

وفي البيت السابع عشر كناية (بجائشة أرته...) وكذا البيت الثامن عشر (فقد له من الأضلاع عشرا) وفي البيت التاسع عشر تشبيه (كأني هدمت به...) وكذا البيت العشرون (قتلت مناسبي) مع الاستعارة المكنية في قوله (وقلت له ...) وقد امتدت في الأبيات التالية وفي البيت الثالث والعشرين تنويع بين أسلوب النهي والخبر وفي الرابع والعشرين كناية (ذا طرفين حرا).

وتأتي بعد ذلك الأبيات الأربعة التي ألزم الهمذاني نفسه فيها بالتقفية بحرفين في شطرتي كل بيت تماما كما فعل في الأبيات الخمسة السابقة التي بدأ بها شعره في هذه المقامة ، وذلك حرصا منه على زيادة الشعور بالإيقاع الموسيقي.

وقد ضمت هذه الأبيات الأربعة جناسا في البيت الأول (همه، عمه) وكناية في البيت الثاني (جائشة تهمه) وكناية في الثالث(ابن الفلا) وتشبيها في الرابع (ونفسه نفسي وسمى وسمه).

أما البيت الذي ختم به شعره هنا والذي جاء في الحكمة والمثل فقد ضم كناية وقصرا استخدم فيه الاستفهام بغرض النفي (هل تلد الحية إلا الحية).

ونظرا لتركيز الهمذاني في شعره على تلك القصة القوية الممتدة، المحبوكة الأحداث والمواقف ، فقد جاء شعره في هذه المقامة خاليا من كثرة المحسنات البديعية ، ومشتملا على كثير من الصور ، كما جاء غزيرا بالمقارنة بشعره في أي مقامة أخرى.

وأتذكر هنا كلاما لمارون عبود فيما يتعلق بهذا الشعر أراني متفقا معه فيه حيث قال[٤٦]: "خدع البديع تاريخ الأدب العربي تسعة قرون في قصيدة وصف بها قتال بشر بن عوانة للأسد حتى قال ابن الأثير في نقد قصيدتي البحتري والمتنبي في قتال الأسد: (ولفطانة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحتري من الانسحاب على ذيل بشر، لأنه قصر عنه تقصيرا كثيرا).

وما بشر بن عوانة إلا البديع الذي خلق هذا البطل الأسطوري... فالبحتري كما يفهم من نقد ابن الأثير مقصر عن البديع".

وترى المدح أيضا مع الفخر ثم التهكم في المقامة الفزارية[٤٧] التي بدأت بحديث عيسى بن هشام الذي قال فيه إنه كان في بعض بلاد فزارة مرتحلا نجيبة، وقد عن له ليلا في سفره راكب تام الآلات فتصدى له وتعرف عليه وعلم أنه شحاذ وصاحب بيان ثم يقول عيسى- في حواره معه-: يا فتى قد جليت عبارتك، فأين شعرك من كلامك؟ فقال: وأين كلامي من شعري؟ ثم استمد غريزته.. وأنشأ يقول:

وأروع أهداه لي الليل والفلا	وخمس تمس الأرض لكن كلا ولا[٤٨]
عرضت على نار المكارم عوده	فكان معما في السيادة مخولا
وخادعته عن ماله فخدعته	وساهلته من بره فتسهلا

(٤٦) كتابه: بديع الزمان الهمذاني ص٤٢-٤٣.

(٤٧) ص٧٨- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٧٩- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

(٤٨) قوله [كلا ولا] كناية عن سرعة السير وتقارب ملاسمتها للأرض، كما جاء بالمصدرين السابقين .

ولمـــا تجـــالينا وأحمد منطقي	بلاني من نظم القـــريض بما بلا
فما هز إلا صار ماحين هزني	ولـــم يلقني إلا إلى السبـــق أولا
ولـــم أره إلا أغـــر مـــحجلا	ومـــا تحتـــه إلا أغـــر محجلا

فقلت له: على رسلك يا فتى، ولك فيما يصحبني حكمك، فقال: الحقيبة بما فيها، فقلت: إنّ وحاملتها[٤٩]، ثم قبضت بجمعي عليه، وقلت: لا والذي ألهمها لمسا، وشـــقها من واحدة خمسا، لا تزايلني أو أعلم علمك، فحدر لثامه عن وجهه، فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فما لبثت أن قلت:

توشحت أبا الفتح	بهذا السيف مختالا
فما تصنع بالسيف	إذا لم تك قتـــالا ؟
فصغ ما أنت حليت	به سيفـــك خلخالا

وأرى أن الأبيات الستة التي أتى بها الهمذاني على لسان هذا الفتى جيدة إلـــى حد ما ، فيما اشتملت عليه من مضمون ، وكذا في مشاركتها لما قبلها وما بعدها مـــن نثر في التعبير عن أحداث المقامة، وقد تنوعت بين المدح والفخر، كما أرى الأبيـــات الثلاثة التي أتى بها على لسان ابن هشام في التهكم بأبي الفتح، وختم بها المقامة تشترك مع الأبيات السابقة في الحكم نفسه.

وقد ضم البيت الأول من الأبيات الستة استعارة مكنية (أهـــداه لـــي الليـــل...) وكناية (وخمس تمس) وجناسا (كلا، ولا)، كما ضم البيت الثاني منها استعارة مكنيـــة (نار المكارم) ومراعاة نظير (معما، مخولا)، وترى في البيت الثالث حسن تقسيم مـــع الكناية عن الكرم ، كما جاء كل من البيت الخامس والسادس مشتملا على حسن تقسيم وكناية وقصرين.

(٤٩) "إن" حرف يراد بها الجواي بمعنى نعم، أي الحقيبة والناقة التي تحملها كما جاء بالمصدرين السابقين.

أما الأبيات الثلاثة فقد جاءت بوزن قصير متنوعة بين أسلوب الخبر والإنشاء؛ حيث انتقل فيها الهمذاني من الخبر إلى الاستفهام ثم إلى الأمر.

وفي المقامة الأسودية[٥٠] يجتمع المدح وشيء من الشعر القصصي والنصح حيث ترى ابن هشام يقول في مقدمة حديثه فيها: "كنت اتهم بمال أصبته، فهمت على وجهي هاربا حتى أتيت البادية فأدتني الهيمة، إلى ظل خيمة، فصادفت عند أطنابها فتى، يلعب بالتراب، مع الأتراب، وينشد شعرا يقتضيه حاله، ولا يقتضيه ارتجاله .. فقلت: ... يا فتى العرب[٥١] أدتني إليك خيفة فهل عندك أمن أو قرى؟ قال: بيت الأمن نزلت، وأرض القرى حللت، وقام فعلق بكمي، فمشيت معه إلى خيمة قد أسدل سترها، ثم نادى: يا فتاة الحي، هذا جار نبت به أوطانه .... فأجيريه، فقالت الفتاة: اسكن يا حضري.

أيا حضري اسكن ولا تخش خيفة	فأنت ببيت الأسود بن قنان
أعز بن أنثى من معد ويعرب	وأوفاهم عهدا بكل مكان
وأضربهم بالسيف من دون جاره	وأطعنهم من دونه بسنان
كأن المنايا والعطايا بكفه	سحابان مقرونان مؤتلفان
وأبيض وضاح الجبين إذا انتمى	تلاقى إلى عيص أغر يماني
فدونكه بيت الجوار وسبعة	يحلونه شفعتهم بثمان

فأخذ الفتى بيدي إلى البيت الذي أومات إليه، فنظرت فإذا سبعة نفر فيه، فما أخذت عيني إلا أبا الفتح الإسكندري في جملتهم فقلت له: ويحك بأي أرض أنت؟ فقال:

نزلت بالأسود في داره	أختار من طيب أثمارها
فقلت: إني رجل خائف	هامت بي الخفية من ثارها
حيلة أمثالي على مثله	في هذه الحال وأطوارها

(٥٠) ص١٨١- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٤٥- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

(٥١) ذكر الهمذاني ثلاثة أبيات هنا على لسان الفتى في الفخر بالشعر لم أشأ ذكرها لشكى في كونها له.

حتى كساني جـابرا حلتـي	ومـا حيـا بـيـن آثـارها
فخذ من الدهر ونل ما صفا	من قبل أن تنقل عـن دارها
إيـاك أن تبقـى أمـنيـة	أو تكسع الشول بأغبـارها

قال عيسى بن هشام: فقلت: يا سبحان الله ! أي طريق الكدية لم تسلكها؟ ثم عشنا زمانا في ذلك الجناب حتى أمنا، فراح مشرقا ورحت مغربا.

وهنا يأتي الهمذاني بستة أبيات في المدح على لسان الفتاة ثم بستة أبيات أخرى على سبيل القصة وبذل النصيحة على لسان أبي الفتح.

وقد جاءت الأبيات بشكل عام قوية في مضمونها ، منسجمة إلى حد كبير مع ما سبقها وما لحقها من نثر في التعبير عما تقتضيه الأحداث الروائية في المقامة.

وفي أبيات المدح الستة ترى في البيت الأول انتقالا من أسلوب الإنشاء إلى الخبر، وترى في البيت الثاني كناية (أعز ابن أنثى....) ومراعاة نظير (معد ويعرب)، كما ترى في البيت الثالث كناية أيضا (وأضربهم بالسيف...) ومراعاة نظير (بالسيف، بسنان)، وفي البيت الرابع ترى تشبيها مع الكناية (كأن المنايا والعطايا...)، وفي البيت الخامس ترى كناية (وأبيض وضاح الجبين ....).

أما الأبيات الستة الأخيرة ففي البيت الثاني منها استعارة مكنية (هامت بي الخيفة)، وفي البيت الثالث كناية (حيلة أمثالي على مثله)، وفي البيت الرابع استعارة مكنية (جابرا خلتي...)، وفي البيت الخامس استعارة تمثيلية (تكسع الشول بأغبارها).

ويلحظ في كل الأبيات هنا قلة المحسنات البديعية ، مع اهتمام أكثر بالصور البلاغية، وأرى أن ذلك يعود إلى ما اتسمت به الأبيات من عاطفة، إلى جانب أسلوبها القصصي.

وهناك مقامات ضمت أغراضا شعرية لكنها خلت من المدح كالمقامة الوعظية والساسانية والقزوينية والمغزلية.

أما المقامة الوعظية[٥٢] فقد جاءت في الوعظ والزهد والاعتبار ، وقد بدأها الهمذاني بقوله: حدثنا عيسى بن هشام قال: بينما أنا بالبصرة أميس، حتى أداني السير إلى فرضة قد كثر فيها قوم على قائم يعظهم وهو يقول: أيها الناس إنكم لم تتركوا سدى وإن مع اليوم غدا... وقد سمعت أن على بن الحسين كان قائما يعظ الناس ويقول: يا نفس حتام إلى الحياة ركونك...؟ أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك، .... ونقل إلى دار البلى من أقرانك ؟

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها	محاسنهم فيها بوال دواثر
خلت دورهم منهم وأقوت عراصهم	وساقتهم نحو المنايا المقادر
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها	وضمتهم تحت التراب الحفائر

كم اختلست أيدى المنون، من قرون بعد قرون؟ وكم غيرت ببلاها وغيبت أكثر الرجال في ثراها؟

وأنت على الدنيا مكب منافس	لحظا بها فيها حريص مكاثر
على خطر تمشي وتصبح لاهيا	أتدري بماذا لوعقلت تخاطر؟
وإن امرأ يسعى لدنياه جاهدا	ويذهل عن أخراه لا شك خاسر

انظر إلى الأمم الخالية،... كيف انتسفتهم الأيام...؟ فانمحت آثارهم، وبقيت أخبارهم.

فأضحوا رميما في التراب وأقفرت	مجالس منهم عطلت ومقاصر
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا بها	وما فاز منهم غير من هو صابر
وحلوا بدار لا تزاور بينهم	وأنى لسكان القبور التزاور
فما إن ترى إلا رموسا ثوابها	مسطحة تسفى عليها الأعاصر

(٥٢) ص١٦٨- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٣٥- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

كم عاينت من ذي عزة وسلطان، ... قد تمكن من دنياه...، فبنى الحصون والدساكر، وجمع الأعلاق والعساكر ؟

فما صرفت المنية- إذ أتت	مبادرة تهوى إليه- الذخائر
ولا دفعت عنه الحصون التي بنى	وحفت بها أنهارها والدساكر
ولا قارعت عنه المنية حيلة	ولا طمعت في الذب عنه العساكر

يا قوم الحذر الحذر، والبدار البدار، من الدنيا ومكايدها....

"وهكذا يستمر الوعظ نثرا وشعرا إلى أن يقول هذا الواعظ":

يا راقع الدنيا بالدين أبهذا أمرك الرحمن، أم على هذا دلك القرآن؟

تخرب ما يبقى، وتعمر فانيا	فلا ذاك موفور، ولا ذاك عامر
فهل لك إن وافاك حتفك بغتة	ولم تكتسب خيرا لدى الله عاذر؟
أترضى بأن تقضى الحياة وتنقضي	ودينك منقوص ومالك وافر؟

قال عيسى بن هشام: فقلت لبعض الحاضرين: من هذا؟ قال: غريب قد طرأ لا أعرف شخصه، فاصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبئ بعلامته، فصبرت فقال: زينوا العلم بالعمل... يغفر الله لي ولكم، ثم أراد الذهاب، فمضيت على أثره، فقلت: من أنت يا شيخ؟ فقال: سبحان الله! لم ترض بالحلية غيرتها، حتى عمدت إلى المعرفة فأنكرتها، أنا أبو الفتح الإسكندري، فقلت: حفظك الله، فما هذا الشيب؟ فقال:

نذير، ولكنه ساكت	وضيف، ولكنه شامت
وإشخاص موت، ولكنه	إلى أن أشيعه ثابت[٥٣]

ومما يلحظ في هذه المقامة أنه مع هذين البيتين الأخيرين فيهاتم الاكتفاء بعرض خمس مجموعات من الأبيات ، جاءت ضمن تسع مجموعات متفرقة بين النثر

---

(٥٣) في ديوان بديع الزمان ترى كلمة "صامت" بدلا من "ساكت" وترى جملة "من يودعه" بدلا من "أن أشيعه" ج١ ص٢٨. وقد تم تصوير هذا الديوان من "الجامع الكبير لكتب التراث الإسلامي والعربي، الإصدار الثاني ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، (موسوعة إلكترونية).

ضمتها المقامة، وبلغت سبعة وعشرين بيتا اتحدت في رويها ووزنها كما اتحدت مع البيتين المذكورين في الوعظ والزهد والاعتبار.

ومما هو معروف أن مقام الوعظ لا يحسن معه عادة الخيال ؛ لأنه مقام استجماع للنصح ، وإعمال للفكر، ولأن كلا من الوعظ والخطابة في حاجة إلى المباشرة لإحداث التأثير ؛ لكي يرتدع السامعون.

ومع ذلك فقد جاءت الأبيات جيدة من حيث مضمونها فكرا وخيالا ، ومن حيث ملاءمتها لما يقتضيه المقام، كما جاءت الأبيات قوية التجانس مع ما سبقها ولحقها من نثر لقرب المضون الخطابي من النثر ، ولبراعة الهمذاني في ذلك.

وبالنظر فيما عرض هنا من أبيات المقامة تجد أن الأبيات الثلاثة الأولى قد اشتمل الأول منها على كناية (فهم في بطون الأرض) وطباق (بطون، ظهور)، واشتمل الثانب على استعارتين مكنيتين (ساقتهم ....المقادر)، (نحو المنايا) كما اشتمل الثالث على استعارة مكنية مع الكناية (ضمتهم الحفائر).

وفي المجموعة الثانية من الأبيات اشتمل البيت الأول على استعارة مكنية (لخطابها..)، وفي البيت الثاني تنويع في الأسلوب بالانتقال من الخبر إلى الاستفهام، وفي البيت الثالث مقابلة بين (يسعى لدنياه) و (يذهل عن أخراه).

وفي المجموعة الثالثة ضم البيت الثاني كناية (وخلوا عن الدنيا...) وقصرا في نصفه الثاني، كما ضم البيت الثالث كناية (وحلوا بدار....) وضم البيت الرابع قصرا.

وفي المجموعة الرابعة ترى في البيت الأول استعارة مكنية بها ترشيح (كف المنية- إذ أتت...) وفي البيت الثاني استعارة مكنية (دفعت عنه الحصون....) كما ترى في البيت الثالث استعارة مكنية (قارعت عنه المنية....) وحسن تقسيم.

وفي المجموعة الخامسة ترى في البيت الأول كناية ومقابلة في قوله (تخرب ما بقى، وتعمر فانيا) كما ترى في البيت حسن تقسيم ، وحسن تفسير ثم ينتقل الهمذاني من الأسلوب الخبري في هذا البيت إلى الأسلوب الإنشائي الاستفهامي في البيتين الثاني

والثالث ، مع الكناية في كل منهما ، والطباق في الثالث (منقوص، وافر) مع اتحاد كل الأبيات السابقة في القافية والوزن.

أما البيتان اللذان ختم الهمذاني بهما مقامته فقد جاء الأول مشتملا على تشبيهين (نذير، ضيف) على تقدير حذف المشبه فيهما بجانب التصريع وحسن التقسيم، وجاء الثاني مشتملا كذلك على تشبيه (إشخاص موت) على تقدير حذف المشبه نفسه.

وبالبداية المعتادة يبدأ الهمذاني المقامة الساسانية[٥٤] بقوله حدثنا عيسى بن هشام قال: أحلتني دمشق بعض أسفاري، فبينا أنا يوما على باب داري، إذ طلع على من بني ساسان كتيبة قد لفوا رؤوسهم.... وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه، ويدعو ويجاوبونه، فلما رآني قال:

١- أريد منك رغيفا	يعلو خوانا نظيفا
٢- اريد ملحا جريشا	أريد بقلا قطيفا
٣- أريد لحما غريضا	أريد خلا نقيفا
٤- اريد جديا رضيعا	أريد سخلا خروفا
٥- أريد ماء بثلج	يغشى إناءً طريفا
٦- أريد دنَّ مدام	أقوم عنه نزيفا
٧- وساقيا مستهشا	على القلوب خفيفا
٨- أريد منك قميصا	وجبّة ونصيفا
٩- أريد نعلا كثيفا	بها أزور الكنيفا
١٠- أريد مشطا وموسى	أريد سطلا وليفا
١١- يا حبذا أنا ضيفا	لكم وأنت مضيفا
١٢- رضيت منك بهذا	ولم أرد أن أحيفا

(٥٤) ص١٠٦- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٠٢- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

قال عيسى بن هشام: فنلته درهما وقلت له: قد آذنت بالدعوة وسنعد ونستعد... وهذا الدرهم تذكرة معك، فخذ المنقود، وانتظر الموعود، فأخذه وصار إلى رجل آخر ظننت أنه يلقاه بمثل ما لقيني، فقال:

يا فاضلا قد تبدّى	كأنه الغصن قدّا
قد اشتهى اللحم ضرسى	فاجلده بالخبز جلدا
وامنُنْ علىّ بشيء	واجعله للوقت نقدا
أطلق من اليد خَصْرا	واحلل من الكيس عقدا
واضمم يديك لأجلي	إلى جناحك عمدا

قال عيسى بن هشام: فلما فتق سمعي منه هذا الكلام، علمت أن وراءه فضلا، فتبعته حتى صار إلى أم مثواه ووقفت منه بحيث لا يراني وأراه، وأماط السادة لثمهم فإذا زعيمهم أبو الفتح الإسكندري، فنظرت إليه وقلت: ما هذه الحيلة ويحك، فأنشأ يقول:

هذا الزمان مشُوم	كما تراه غشوم
الحمق فيه مليح	والعقل عيْب ولوم
والمال طيفٌ، ولكن	حول اللئام يحوم

وكما ترى يختم الهمذاني مقامته بهذه الأبيات الثلاثة على لسان أبي الفتح في الشكوى من الزمان، كما أتى قبلها بمجموعتين من الأبيات بلغت سبعة عشر بيتا جاءت في الاستجداء، وأرى أن كل هذه الأبيات مقبولة إلى حد ما في مضمونها وملاءمتها وارتباطها بما جاورها من نثر.

وقد اختار الهمذاني لأبيات المجموعة الأولى وزنا قصيرا راقصا ، كما جعل التصريع في بيتها الأول ، وأكثر في هذه الأبيات من جملة (أريد) التي يأتي بعدها في كل مرة بشيء مختلف عن سابقه، وقد جعل بين الكثير من هذه الأشياء مراعاة نظير، كما ترى مثلا في البيت الرابع بين (جدى، سخل، خروف) وفي البيت الثامن بين

(قميص، جبة، نصيف) وفي البيت العاشر بين (مشط، موس، سطل، ليف) كما يكثر في هذه الأبيات من حسن التقسيم، وفي البيت الحادي عشر ترى طباقا (ضيف، مضيف) ثم يختم المجموعة بالبيت الثاني عشر الذي أتى فيه بجملة (لم أرد) مضادة لجلمة (أريد) التي تكررت مع الأبيات (طباق سلب).

وقد جاءت أبيات المجموعة الثانية أيضا بوزن قصير، وقد تنوعت بين الإنشاء والخبر، وجاء بيتها الأول مصرعا ومشتملا على تشبيه (كأنه الغصن) واشتمل فيها البيت الثاني على استعارة مكنية أعقبها ترشيح (اشتهى اللحم ضرسى...) مع مراعاة النظير (اللحم- الخبز) وفي البيت الرابع ترى كناية (أطلق من اليد خصرا...) مع حسن تقسيم، وفي البيت الخامس ترى أيضا كناية (واضمم يديك لأجلى.... إلى جناحك) مع الاقتباس[٥٥].

ولم يتخل الهمذاني في أبياته الثلاثة التي ختم بها مقامته عن اختياره أيضا للوزن القصير ، وعن التصريع الذى ترى معه في البيت الأول جناسا (مشوم، غشوم) وفي البيت الثاني مقابلة بين شطرتيه (الحمق فيه مليح والعقل عيب ولوم) وفي البيت الثالث استعارة مكنية (المال.. يحوم).

وتبدو هنا بوضوح في أبيات المقامة كثرة المحسنات البديعية التي أتى بها الهمذاني لمعرفته بتأثيرها في جذب انتباه المتلقي وإمتاعه ، حتى يتمكن من تحقيق ثمرة غرضه من هذه الأبيات ، وهو الاستجداء الصريح.

وفي المقامة القزوينية[٥٦] تجد الهمذاني يقول: حدثنا عيسى بن هشام قال:

غزوت الثغر بقزوين، سنة خمس وسبعين، فيمن غزاه، فما أجزنا حزنا، إلا هبطنا بطنا، حتى وقف المسير بنا على بعض قراها، فمالت الهاجرة بنا إلى ظل أثلاث ... فنلنا من الطعام ما نلنا، ثم ملنا إلى الظل فقلنا فما ملكنا النوم حتى سمعنا صوتا

---

(٥٥) سورة طه الآية ٢٢.

(٥٦) ص١٠٠- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٩٧- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

أنكر من صوت حمار،... وفتحت التوأمتين إليه وقد حالت الأشجار دونه، وأصغيت فإذا هو يقول، على إيقاع الطبول:

١- أدعو إلى الله فهل من مجيب	إلى ذرا رحب ومرعى خصيب
٢- وجنة عالية ماتني	قطوفها دانية ما تغيب
٣- يا قوم إني رجل تائب	من بلد الكفر وأمرى عجيب
٤- إن أك آمنت فكم ليلة	جحدت ربي وأتيت المريب
٥- يا رب خنزير تمششته	ومسكر أحرزت منه النصيب
٦- ثم هداني الله وانتاشني	من ذلة الكفر اجتهاد المصيب
٧- فظلت أخفى الدين في أسرتي	وأعبد الله بقلب منيب
٨- أسجد للات حذار العدى	ولا أرى الكعبة خوف الرقيب
٩- وأسأل الله إذ جنَّني	ليل وأضناني يوم عصيب
١٠- ربٌ كما أنك أنقذتني	فنجني إني فهيم غريب
١١- ثم اتخذت الليل لي مركبا	وما سوى العزم أمامي جنيب
١٢- فَقَدْكَ من سيري في ليلة	يكاد رأس الطفل فيها يشيب[٥٧]
١٣- حتى إذا جزت بلاد العدى	إلى حمى الدين نفضت الوجيب
١٤- فقلت إذ لاح شعار الهدى	نصر من الله وفتح قريب

فلما بلغ هذا البيت قال: يا قوم وطئت داركم بعزم لا العشق شاقه، ولا الفقر ساقه، وقد تركت وراء ظهري حدائق وأعنابا... مؤثرا ديني على دنياي.. فلو دفعتم النار بشرارها ... ولا شطط فكل على قدر قدرته... قال عيسى بن هشام: فاستفزني رائع ألفاظه، وسروت جلباب النوم، وعدوت إلى القوم، فإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندري بسيف قد شهره وزي قد نكره، فلما رآني غمزني بعينه، وقال:

---

(٥٧) قدك: اسم بمعنى كافيك، أو اسم فعل بمعنى يكفيك.

رحم الله من أعاننا بفاضل ذيله، وقسم لنا من نيله، ثم أخذ ما أخذ، وخلوت به فقلت: أأنت من أولاد النبيط؟ فقال:

أنا حالي من الزمـــا	ن كحـالي مـع النسـبْ
نسبي في يد الزمـــا	ن إذا سـامـه انقـلـب
أنا أمسي من النبيـــ	ـط وأضحى من العرب

وتنتهي المقامة بهذه الأبيات الثلاثة التي جاءت ملائمة للموقف ، مقبولة في اتصالها بما قبلها من نثر وفي مضمونها، فقد ارتبطت بما قبلها ارتباط الجواب بالسؤال، وفيها يفخر الهمذاني على لسان أبي الفتح بتلونه مع تلون الزمان.

أما الأبيات التي سبقتها ، والتي بلغت أربعة عشر بيتا ، فأراها مقبولة في مضونها الذي جاء في الاستجداء بما ضمه من تحايل قصصي ووصف، بينما لا أرى فيها ملاءمة كافية للموقف أو اندماجا بما قبلها وما بعدها من نثر.

وفي الأبيات الأربعة عشر جاء البيت الأول مصرعا وبه تنويع بين الخبر والإنشاء، وطباق (أدعو، مجيب) ومشتملا على كناية (ذرا رحب...) وجاء الثاني مشتملا على اقتباس[٥٨] (وجنة عالية ...قطوفها دانية)، وفي البيت الثالث انتقال من أسلوب الإنشاء (النداء) إلى الخبر (يا قوم إني ....)، وفي الرابع طباق (آمنت، وجحدت) وفي الخامس مراعاة نظير (خنزير- مسكر) وفي السادس طباق (هداني، الكفر) وفي السابع اقتباس[٥٩] (بقلب منيب) وفي الثامن كناية (لا أرى الكعبة) وفي التاسع استعارة مكنية (... وأضناني يوم) وفي العاشر انتقال من أسلوب الإنشاء (الأمر) إلى الخبر، وفي الحادي عشر تشبيه بليغ (... الليل لي مركبا) واستعارة تصريحية (وما سوى العزم أمامي جنيب) مع القصر، وفي الثاني عشر كناية (يكاد رأس الطفل فيها يشيب) .

---

(٥٨) سورة الحاقة الآية ٢٢، ٢٣.

(٥٩) سورة ق الآية ٣٣

وفي الثالث عشر استعارة مكنية (حمى الدين، نفضت الوجيب) وفي الرابع عشر كناية (شعار الهدى) واقتباس[٦٠] (نصر من الله وفتح قريب).

وتبدو في هذه الأبيات كثرة المحسنات البديعية لإمتاع المتلقى وجذبه، وهو ما يتفق مع الغرض منها وهو الاستجداء.

وفي الأبيات الثلاثة مع وزنها القصير ضم بيتها الأول تشبيها مقلوبا (حالي من الزمان كحالي مع النسب) كما ضم البيت الثاني استعارة مكنية (نسبي في يد الزمـــان) وجاء الثالث مشتملا على كناية عن كثرة التحول مع الطباق (أمسى، أضحى).

ومع ختام هذه النماذج نأتي إلى المقامة المغزلية[٦١] وفيها يقول الهمذاني: حدثنا عيسى بن هشام قال: دخلت البصرة وأنا متسع الصيت كثير الذكر، فدخل على فتيـــان، فقال أحدهما: أيد الله الشيخ، دخل هذا الفتى دارنا، فأخذ فنج سُـــنَّار[٦٢]، برأســـه دوار، بوسطه زُنّار، وفلك دوار، رخيم الصوت إن صرّ، سريع الكر إن فر، طويل الذيل إن جر...، فقال الفتى: نعم- أيد الله الشيخ- لأنه غصبني على:

مـــرهف سنـــانُهُ	مـــذلّق أسنـــانُـــهُ
أولاده أعـــوانـــه	تفريق شمل شانُـــهُ
مواثب لصـــاحبه	معلـــق بشـــار بـــه
مشتبك الأنيـــاب	في الشيب والشباب
حلو مليح الشكل	ضـــاو زهيد الأكـــل
رام كثير النبـــل	حوف اللّحى والسبل[٦٣]

---

(٦٠) سورة الصف الآية ١٣.

(٦١) ص٢٢٤- شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٧٣- شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

(٦٢) فنج (كما جاء في هامش المرجعين السابقين): حيوان يؤخذ من جلده فراء كأحسن ما يكون وأطلقه هنا وأراد منه جلده، والسنار- بضم أوله وتشديد ثانيه- السنور، وهو الهر والمعنى شيء يشبه ذلك، والمراد تشبيه المغزل بالهر، لأنه يكون حين وجود الخيط عليه شبيها به في الصورة.

(٦٣) نبله (كما في هامش المرجعين السابقين): أسنانه، وهو كثيرها، والسبل- بفتح الباء- جمع سَبَلة، وهي ما على الشارب من الشعر، وتسكين الباء لضرورة موافقة وزن النظم.

فقلت للأول: رد عليه المشط ليرد عليك المغزل

وأرى هنا أن الهمذاني كان موفقا في دمج هذه الأبيات- التي جاءت في الإلغاز- بما قبلها وما بعدها من نثر ، بجانب توفيقه في مضونها ومطابقتها للموقف، وقد أتى بها لزومية بوزن خفيف وقصير، متنوعة القوافي، قوية المضمون.

ومع هذا الوزن الراقص المتميز والقافية اللزومية المتنوعة جاءت الأبيات مشتملة في بيتها الأول على استعارة تصريحية (سنانه) مع حسن التقسيم، وفي البيت الثاني استعارة تصريحية أيضا (أولاده) مع الطباق (تفريق، شمل) وكذلك في البيت الثالث استعارة تصريحية (مواثب لصاحبه) مع حسن التقسيم، وفي البيت الرابع مع الاستعارة التصريحية (مشتبك الأنياب) طباق (الشيب والشباب) وفي البيت الخامس تشبيه (ضاو زهيد الأكل) مع حسن تقسيم، وفي البيت الأخير تشبيه أيضا (رام كثير النبل) مع مراعاة نظير.

وهكذا ترى هنا – مع قلة الأبيات – تركيزا على خفة الإيقاع مع كثرة المحسنات البديعية ، والصور البلاغية التي تتناسب مع الغرض من الأبيات وهو الإلغاز، وذلك بسبب ما تحدثه تلك المحسنات من أثر في جذب المتلقى وإمتاعه ليظل مشدودا نحو التفكير فيما اشتملت عليه الأبيات من إلغاز يحتاج إلى مزيد من التأمل والتركيز.

خاتمة البحث:

نستخلص من هذا البحث أمرين:

أولهما: نستخلصه من قراءة شعر الهمذاني فيما سبق بيانه من النماذج المختارة ويبدو في النقاط الآتية:

١. من المقامات التي اشتملت على شعر في المديح الموفق من حيث الموضوع والملاءمة للموقف المقامة الناجمية، فهي من أحسن المقامات التي مدح بها بديع الزمان خلف بن أحمد مع حسن الدمج بين نثره وشعره، وقد جاء شعره فيها ممتزجا بالصور البلاغية الموفقة مع بعض المحسنات البديعية التي خدمت المعنى وابتعدت عن التكلف.

وقد رأينا اتفاق شعر المقامة الخلفية مع شعر المقامة المذكورة في هذه الأحكام إلى حد كبير.

كذلك من المقامات التي مدح فيها الهمذاني بشعره خلف بن أحمد ويقترب الشعر فيها من شعر المقامة الناجمية في الأحكام المذكورة المقامة الملوكية ثم المقامة التميمية.

٢. أما المقامة النيسابورية فقد اتسم الشعر فيها بالجودة من حيث الموضوع فقط دون ملاءمة للموقف أو اندماج مع النثر.

هذا ويبقى من المقامات التي مدح فيها الهمذاني خلف بن أحمد المقامة السارية وقد بدا فيها عدم توفيق الهمذاني في ملاءمة شعره للموقف أو اندماجه بالنثر، مع اتسامه ببعض سمات الجودة في تأليفه.

٣. قد رأينا أنه كان موفقا في المقامة الجرجانية في مضمون شعره وملاءمته لما قيل فيه ، وفي دمج هذا الشعر بما سبقه وما لحقه من نثر.

٤. كما رأينا أنه في المقامة الجاحظية وفق تمام التوفيق في بعض شعره فيها من حيث المضمون ، والاندماج ، واستكمال الموقف الروائي، ولم يكن توفيقه كاملا في البعض الآخر.

٥. بالنسبة لشعره في كل من المقامة البخارية والمقامة الفزارية كان هناك بعض التوفيق في مضمونه وفي ملاءمته للمواقف الروائية مع ما سبقه وما لحقه من نثر.

٦. يلحظ في شعر المقامة الساسانية الذي جاء في الاستجداء كثرة المحسنات البديعية وكذلك في الأربعة عشر بيتا التي جاءت في الغرض نفسه واشتملت عليها المقامة القزوينية- رغم قلة ملاءمة هذه الأبيات للموقف ، ولما جاورها من نثر مقارنة بشعر المقامة الساسانية- ورأينا كثرة المحسنات البديعية أمر يتفق مع ما يتطلبه الاستجداء من جذب للمتلقي وإمتاع له، لذا أتى بها الهمذاني لإدراكه أن لها أثرا كبيرا في ذلك الجذب والإمتاع.

وفي شعر المقامة المغزلية الذي جاء في الإلغاز كثرت المحسنات البديعية أيضا لاتفاقه مع الاستجداء في مدى الحاجة إلى ما تحدثه من تأثير.

٧. وأخيرا رأينا في المقامة البشرية أن أبياتها جاءت في قمة القوة من حيث المضمون، ومن حيث التعبير الموفق عن الأحداث الروائية ، مع الاندماج بما سبقها وما لحقها من نثر، وأن شعرها خلا من كثرة المحسنات البديعية واشتمل على كثير من الصور البلاغية، وأنه قد جاء غزيرا بالمقارنة بشعر الهمذاني في أي مقامة أخرى حيث بلغ فيها عدد الأبيات ٣٨ بيتا، وقد رأينا أن السبب يعود إلى ما فيها من عاطفة قوية ، وقصة ممتدة محبوكة الأحداث.

ويقترب كثيرا من شعر المقامة البشرية في الأحكام المذكورة شعر المقامة الأسودية، وقد رأينا ما فيه أيضا من عاطفة وأسلوب قصصي.

ثم يليهما في تلك الأحكام شعر المقامة الوعظية- بما فيها من عاطفة خطابية- عدا أن عدد أبيات الأسودية المختارة ١٢ بيتا، وعدد أبيات الوعظية المختارة ١٨ بيتا.

الأمر الثاني: نستخلص من قراءة شعر الهمذاني في كل مقاماته بشكل عام ما يلي:

١. أن الأغراض الشعرية البارزة التي قال فيها لم تتجاوز الأغراض التي رأيناها من خلال تلك النماذج التي تم استعراضها.

٢. استطاع بجانب ملاءمة شعره في مقاماته لكثير من المواقف التي قيل فيها أن يستغل المقامات بشكل جيد للتعبير بشعره فيها عن شعوره تجاه من حوله وما حوله في عصره ومجتمعه.

٣. ليس كل شعره في المقامات مثل نثرها في كثرة المحسنات البديعية أو الألفاظ الغريبة، كما أنك لا ترى بعضه متكلفا أو مقحما.

٤. يختار لكل موضع من شعره في المقامات الألفاظ المناسبة والوزن المناسب للغرض والمقام.

٥. يتنوع شعره من مقامة إلى أخرى من حيث الوزن ، ومن حيث الاستعانة بالمحسنات ، ومن حيث الأغراض ، ومن حيث درجة الوضوح، ومن حيث الكم وذلك محاولة منه في كل مقامة أن يجعل كلامه مطابقا لما يقتضيه المقام والذي يختلف من مقامة إلى أخرى.

٦. يقوم الشعر كثيرا في التعبير بما لا يقوم به النثر، وقد أدرك الهمذاني ذلك ولجأ إليه في مقاماته كلما رأى في ذلك زيادة في إيضاح مراده ومساندة لما جاء به في مقاماته وجذبا للمتلقي نحو كلامه.

٧. في شعر مقاماته تكرار لبعض الأفكار التي ترى منها: الشكوى من الزمان أو اتهامه والدعوة لمسايرته مثل قوله في المقامة الأزانية[٦٤]:

([٦٤]) ص٢٠ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٦ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

أرى الأيام لا تبقي	على حال فأحكيها

وقوله في المقامة الساسانية[٦٥]:

هذا الزمان مشوم	كما تـــراه غشوم
الحمق فيه مليـــح	والعقل عيب ولوم

وقوله في المقامة القردية[٦٦]:

الذنب للأيـــام لا لـــي	فاعتب علي صرف الليالي
بالحمق أدركت المني	ورفلـــت في حلل الجمال

وقوله في المقامة الحمدانية[٦٧]:

ساخف زمانك جدا	إن الزمان سخيف
دع الحمية نسيـــا	وعش بخير وريف

وقوله في المقامة الأرمنية[٦٨]:

من يصحب الدهر يأكل	فيه سمينا وغثا
فـــالبس لـــدهر جديدا	والبس لآخر رثا

- وقد جاء هذا البيت ضمن ثلاثة أبيات في هذين المرجعين كما ترى هذه الأبيات الثلاثة أيضا في ديوان بديع الزمان ج١، ص٢٢١ (المصور من : الجامع الكبير لكتب التراث الإسلامي والعربي...).

([٦٥]) ص١٠٩-١١٠ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٠٤ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

([٦٦]) ص١١٢ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٠٦ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

([٦٧]) ص٢١٤ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٦٣ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

([٦٨]) ص٢٨٤ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٩٨ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

ومما جاء من ذلك للهمذاني على لسان أبي الفتح (بينما يرى الدكتور شـــوقي ضـــيف- فـــي الفـــن ومذاهبـــه ص٢٤٩- أنه من شهر أبي دلف) قوله في المقامة القريضية (ص١٧ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محـــي الدين، ص١٣ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٣ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م:

ويحك هذا الزمان زور — فلا يغرنك الدور

لا تلتزم حمالة ولكن — دربا الليالي كما تدور

وقد جاء هذان البيتان ضمن ثلاثة أبيات في ديوان بديع الزمانالسابق ذكره ج١، ص١٣.

وترى من هذه الأفكار أيضا: إعلان نسبه إلى الإسكندرية وعدم إقامته بهـا أو ثباته على حال مثل قوله في المقامة الجاحظية[٦٩]:

إسكندرية داري	لو قر فيها قراري
لكن ليلي بنجد	وبالحجاز نهاري

وقوله في المقامة المارستانية[٧٠]:

أنـا إسكنـدر داري	في بلاد الله سارب
أغتدى في الدير قسيسا	وفي المسجد راهب

وقوله في المقامة المجاعية[٧١]:

أنا من ذوى الإسكندرية	من نبعة فيهم زكية
سخف الزمان وأهله	فركبت من سخفي مطية

وقوله في المقامة العلمية[٧٢]:

إسكندرية داري	لو قر فيها قراري
لكن بالشام ليلي	وبالعراق نهاري

كذلك من هذه الأفكار تكراره لكلمة "أنا" مع التفاخر بالغنى أو التنقل أو التلون مثل قوله في المقامة الكوفية[٧٣]:

---

(٦٩) ص٨٩ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٨٨ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

(٧٠) ص١٦١ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٣٢ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

(٧١) ص١٦٧ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٣٤ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

(٧٢) ص٣١٥ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٢١٣شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

(٧٣) ص٣٤ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٣٢ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

وترى هذين البيتين ضمن ثلاثة أبيات في المرجعين المذكورين، وهذه الأبيات الثلاثة تراها ضمن أربعة أبيات في ديوان بديع الزمان ج١ ص٨ (والمصور من الجامع الكبير لكتب التراث....).

أنا في ثروة تشق	لها بـــردة الطـــرب
أنا لو شئت لاتخ	ت سقوفا من ذهـــب

وقوله في المقامة الأذربيجانية[٧٤]:

أنا جوالة البـــلا	د وجوابة الأفـــق
أنا خذروفة الزما	ن وعمارة الطرق

وقوله في المقامة المارستانية[٧٥]:

أنا ينبوع العجائب	في احتيالي ذو مراتب
أنا في الحق سنام	أنا في الباطل غارب

وقوله في المقامة المكفوفية[٧٦]:

أنا أبو قلمون	في كل لون أكون

وقوله في المقامة القزوينية[٧٧]:

أنا حالي من الزما	ن كحـــالي مع النســـب
أنا أمسي من النبيـــ	ـــط وأضحي من العرب

وقوله في المقامة الخمرية[٧٨]:

أنا من يعرفه كل	تهـــام ويمـــاني

([٧٤]) ص٥٥ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٥٦ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

([٧٥]) ١٦٠ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص١٣٢ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

([٧٦]) ص٩٣ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٩٢ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

([٧٧]) ص١٠٥ شرح مقامات بديع الزمان، لمحمد محي الدين، ص١٠١ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.

([٧٨]) ص٤٣٦ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٢٥٦ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨.

أنا من كل غبـــار	أنا من كل مكان

وقوله في القمامة المطلبية[٧٩]:

أنا جبـــار الزمـــان	لي من السخف معاني
وأنا المنفق بعد الـــ	مال من كيس الأماني

٨. بلغ عدد المقامات التي اختير شعره فيها نماذج للحكم على شعره في كـل مقاماتـه ست عشرة مقامة وهي الناجمية والخلفيـة والنيسـابورية والملوكيـة والسـارية والتميمية والجرجانية والجاحظية والبخاريـة والبشـرية والفزاريـة والأسـودية والوعظية والساسانية والقزوينية والمغزلية.

كما بلغ عدد المقامات الأخرى التي مثلت منها بشعر له اثنتا عشرة مقامة هي الأزاذية والقردية والحمدانية والأرمنية والمارستانية والمجاعيـة والعلميـة والكوفيـة والأذربيجانية والمكفوفية والخمرية والمطلبية (خلافا للمقامة القريضية التي مثلت منها ببيتين وقد رأينا من ينسبهما لأبي دلف....).

هذا بجانب المقامات التسع التي جاءت خالية من شعره وأوضحتها في تمهيـد هذا البحث، ويبقى بعد ذلك من مقاماته ثلاث عشرة مقامة لم أتعرض لشعره فيهـا لأن ما تم بيانه من شعره فيه الكفاية.

٩. يمكن أن أقول كما قال الدكتور مصطفى الشكعة[٨٠]: "إن الصفة الأساسـية لبـديع الزمان هي كونه كاتبا بارعا في رسائله، ومبتكرا نابغة في مقاماته، وأما الشـعر فهو سمة فرعية عنى جميع الكتاب باصطناعها فجاء شعرهم دون مستوى الشـعر الجيد، حتى أطلق عليه اصطلاحا- شعر الكتاب- فإذا ما كان الشأن مرتبطا ببديع

(٧٩) ص٤٤٧ شرح مقامات بديع الزمان لمحمد محي الدين، ص٢٦٠ شرح مقامات الهمذاني ١٩٦٨م.
(٨٠) كتابه: بديع الزمان ص٢٢-٢٣.

الزمان، فليس من شك في أن الأمر يحتاج إلى نظرة متأنية، ذلك لأن بعض شعره يبلغ مبلغ شعر الفحول طبقا لما قرره ضياء الدين بن الأثير حين تناول بالدراسة قصيدته الرائية التي أجراها على لسان البطل الخيالي بشر بن عوانة، فوصف القصيدة بأنها (من النمط العالي الذي لم يأت أحد بمثله، وكل الشعراء لم تسم قرائحهم إلى استخراج معنى ليس فيها.....".

١٠. قمت بالنظر في شعر بديع الزمان في ديوانه الذي قمت بتصويره من الجامع الكبير.. فلم أجد من شعر هذا الديوان في مقاماته سوى أبيات متفرقة حددتها في مواضعها من البحث، وهي لم تبلغ سوى عشرة أبيات في أربعة مواضع بجانب بيتين وردا في ختام المقامة البلخية والتي هي من المقامات التي لم أتعرض لشعره فيها اكتفاء بما تم بيانه.

١١. أما عن شعره في الديوان فقد قال عنه كارل بروكلمان[٨١]: "وأما شعر بديع الزمان فليس إلا كلاما منظوما مزخرفا مجلي الصنعة والبديع".

كما وصف الأستاذ آدم متز[٨٢] هذا الشعر بأنه: "قصائد تدل على أن صاحبها كان بفطرته كاتبا موهوبا ولم يكن شاعرا".

وأرى هنا أن شعره في مقاماته قد جاء على عدة مستويات ولم يجئ على مستوى واحد ضعيف، لذا لا يصلح أن تشمله هذه الأحكام العامة المطلقة الصادرة بشأن شعره في الديوان.

([٨١]) كتابه: تاريخ الأدب العربي ج٢ ص١١٤، وفيه أن ديوانه المذكور نشره محمد شكرى المكي في القاهرة ١٣٢١هـ، ١٩٠٣م.

([٨٢]) كتابة الحضارة الإسلامية ج١ ص٣٣١

بينما يصلح أن أحكم على شعره في مقاماته بما قرأه للدكتور مصطفى الشكعة في قوله[٨٣]: "ومجمل القول إن للبديع شعرا.. يمكن أن يضعه بين شعراء العربية المرموقين يمثل إلى حد كبير نفسية الشاعر، وتتجلى فيه الأخيلة الخصبة والأساليب المرصوفة والألفاظ الرقيقة حينا والجزلة حينا آخر حسب الموضوع الذي كتب فيه الشعر... كما أن للبديع شعرا لا يمتاز عن شعر الكتاب في شئ".

١٢. وأخيرا فإنه مع إثبات الهمذاني قدرته على إجادة الشعر في بعض مقاماته فقد كان كما وصفه الدكتور زكي مبارك[٨٤]: "ممن يجيدون الشعر إجادة تامة في موضوعات لا يحسن فيها غير القريض".

هذا ومع تذكري بأنه توفي دون أن يطول به العمر فإني أرى أنه لو تفرغ للشعر وحده- كما يقول الدكتور مصطفى الشكعة[٨٥]- لكان من ألمع شعراء العربية لاستعداده الفطري ونفسيته الساطعة المشرقة الشفافة.

---

(٨٣) كتابه: بديع الزمان ص٤٣٤.

(٨٤) كتابه: النثر الفني في القرن الرابع ج١ ص٢٦-٢٧.

(٨٥) كتابه: بديع الزمان ... ص٤٣٤.

مراجع البحث:

١. بديع الزمان الهمذاني (سلسلة نوابغ الفكر العربي ٩) بقلم مارون عبود، دار المعارف ١٩٦٣م بالقاهرة.

٢. بديع الزمان الهمذاني د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية. ط/٤. ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٣. تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار ج٢، ط/٥، دار المعارف.

٤. الجامع الكبير لكتب التراث الإسلامي والعربي، الإصدار الثاني ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م(موسوعة إلكترونية) ... ديوان بديع الزمان.

٥. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج١، تأليف الأستاذ آدم متز نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة.

٦. شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، تأليف محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/٢.

٧. شرح مقامات الهمذاني، دار التراث، بيروت ، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

٨. الفن ومذاهبه في النثر العربي، تأليف الدكتور شوقي ضيف، الطبعة الحادية عشرة، دار المعارف.

٩. مجمع البحرين، تأليف الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني، بيروت مكتبة صادر ١٩٢٤م.

١٠. مقامات السيوطي، دراسة في فن المقامة المصرية، د. عوض الغباري ٢٠٠٢م.

١١. المقامات اللزومية، للسرقسطي، تحقيق الدكتور بدر أحمد ضيف، تقديم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة ١٨٨٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية.

١٢. النثر الفني في القرن الرابع، تأليف زكي مبارك- ج١، ط/٢، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

١٣. الوجديات. مقامات محمد فريد وجدي، حققها وقدم لها د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٤. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ج١، دار صادر ، بيروت ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

١٥. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. تأليف أبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري المتوفى ٤٢٩هـ، شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة ج٤، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.